محمد

رسول الله ﷺ منهج ورسالة

بحث وتحقيق

الشيخ / محمد الصادق عرجون

الجزء ٢٧



مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
تأسست عام ١٣٤٩ هـ - ١٩٣١م

تصوير عائشة للمواقف بدءًا ونهاية

قالت عائشة -رضي الله عنها- : فأخبرتني أم مسطح بقول أهل الإفك، فازددت مرضًا على مرضي.. فبكيت يومي ذلك كله، لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، وأصبح أبواي عندي وقد بكيت ليلتين ويومًا، لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، حتى إني لأظن أن البكاء فالق كبدي.

فبينا أبواي جالسان عندي وأنا أبكي دخل رسول الله ﷺ علينا فسلم، ثم جلس، ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل، وقد لبث شهرًا لا يوحى إليه في شأني شيء.

فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال: «يا عائشة إنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنتِ ألممتِ بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف ثم تاب تاب الله عليه».

فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب عني رسول الله ﷺ فيما قال: فقال أبي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله ﷺ فيما قال، قالت أمي: فوالله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ.

قالت عائشة -رضي الله عنها- : فقلت وأنا جارية حديثة السن، لا أقرأ من القرآن كثيرًا: ... لقد سمعتم هذا الحديث

حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت إني بريئة لا تصدقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر -والله يعلم إني منه بريئة- لتصدقني، فوالله لا أجد لي ولكم مثلًا إلا أبا يوسف حين قال:

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾

(يوسف: ١٨)

ثم تحولتُ فاضطجعت على فراشي، والله يعلم أني حينئذ بريئة، وأن الله مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن الله تعالى منزل في شأني وحيًا يتلى، لَشَأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمره، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها، فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أُنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاء[1]، حتى إنه ليتحدر منه العرق مثل الجمان -وهو في يوم شات- من ثقل القول الذي أنزل عليه، فسُرِّي عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال: «يا عائشة إن الله قد برأك» فقالت لي أمي: قومي إليه، فقلت: لا والله، لا أقوم إليه، فإني لا أحمد إلا الله -عز وجل-، وأنزل الله تعالى عليه:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾

(النور: ١١)

(١) البرحاء: الشدة، والمشقة. (المجلة)

تصوير القرآن للموقف بأسلوب إعجازه وروعته:

والمتأمل في هذه الآيات الكريمات على ضوء ما قالت عائشة -رضي الله عنها- في رواية الصحيح يرى أنها جاءت بأكفأ وأربى تصوير في التشريف والحفاوة والمنافحة عن حرم رسول الله ﷺ وتنزيه ساحتها، وتعزية المجتمع المسلم وتسلية رسول الله ﷺ فيما أصابه من البلاء وشدة المحنة، وفيما جاء به أعداء الله، وأعداء رسوله وأعداء أهله، وأعداء دينه، ورسالته من المنافقين ومرضى القلوب، الحاسدين المحنقين والمتلقفين الأباطيل والأكاذيب من ألسنة الفجرة المتقولين، وأفواه المرجفين، تعظيما لقدره ﷺ، وصونا لساحته أن يكون متنزلًا للبهتان المفترى، وإعزازًا لأحب الناس إليه أن يحوم حول حمى شرفها وطهرها رشح من نزيز الحاقدين.

خصائص عائشة المميزة في حياتها مع رسول الله ﷺ:

وقد أبانت عائشة -رضي الله عنها- أبلغ بيان بأروع أسلوب إذ تحدثت عن نفسها بعد أن برأها الله تعالى فقالت: لقد أُعطيتُ تسعا ما أعطيتهن امرأة: لقد نزل جبريل -عليه السلام- بصورتي في راحته حين أمر رسول الله ﷺ أن يتزوجني، ولقد تزوجني بكرًا ما تزوج بكرًا غيري، ولقد توفي رسول الله ﷺ وإن رأسه لفي حجري، ولقد قُبِرَ في بيتي،

ولقـد حفت الملائكة ببيتـي، وإن كان الوحي لينزل عليه وأنا معـه في لحافه، فما يبينني عن جسـده[٢]، وإنـي لابنة خليفته وصديقـه، ولقد نزل عذري من السـماء ولقد خُلِقتُ طيبة عند طيب، ولقد وَعِدْتُ مغفرة ورزقًا كريمًا.

ولقـد صَدَقتْ في كل مـا حدَّثت به عن نفسـها من الفضل والشـرف والخصائـص النبيلـة والصفـات الكماليـة التي لم تجتمع في امرأة قبلها ولا بعدها.

آية من البلاغة الزمخشرية في تفسير آيات الإفك والبراءة:

وفي تصوير ما اشـتملت عليه الآيات التي برئت بها عائشة -رضي الله عنها- أفرغ الزمخشـري سواد عيون براعته البيانية مدادًا لقلمه، فأحسن وأبدع، وسما إلى ذروة الإعجاز في الكلام البشـري إنصافا وانتصافا ومعرفة لمنـازل البلاغة من الكلام، فقال: ولو فَلَيتَ القرآنَ كله وفتشـت عمـا أوعد به العصاة لم تر الله تعالى قد غلظ في شـيء تغليظه في إفك عائشـة رضوان الله عليهـا، ولا أنـزل من الآيـات القوارِع المشـحونة بالوعيد الشـديد، والعتاب البليغ والزجر العنيف، واسـتعظام ما ركب من ذلك واستفظاع ما أقدم عليه، ما أنزل فيه على طرق مختلفة وأساليب مفتنة، كل واحد منها كاف في بابه.

ولـو لم ينزل إلا هذه الثلاث لكفـى بها، حيث جعل القذفة

(٢) أبانه عن كذا: أبعده عنه. (المجلة)

ملعونين في الدارين جميعًا وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة، وبأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا، وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الواجب الذي هم أهله حتى يعلموا عند ذلك:

﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾

(النور: ٢٥)

فأوجز في ذلك وأشبع، وفصل وأجمل، وأكد وكرر، وجاء بما لم يقع في وعيد المشركين عبدة الأوثان إلا ما هو دونه في الفظاعة، وما ذاك إلا لأمر.

ولقد برأ الله -تعالى- أربعة بأربعة: برأ يوسف بلسان الشاهد

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾

(يوسف: ٢٦)

وبرأ مريم بإنطاق ولدها حين نادى من حجرها: إني عبد الله، وبرأ عائشة بهذه الآيات العظام في كتابه المعجز المتلو على وجه الدهر.

مثل هذه التبرئة بهذه المبالغات، فانظر كم بينها وبين تبرئة أولئك؟ وما ذاك إلا لإظهار علو منزلة رسول الله ﷺ والتنبيه على إنافة محل سيد ولد آدم وخير الأولين والآخرين وحجة الله على العالمين.

ومن أراد أن يتحقق عظمة شأنه ﷺ وتقدم قدمه، وإحرازه قصب السبق دون كل سابق فليتلق ذلك من آيات الإفك، وليتأمل كيف غضب الله في حرمته، وكيف بالغ في نفي التهمة عن حجابه.

صبر النبي ﷺ وآل أبي بكر تحت وطأة بلاء الإفك:

وقد لبث ﷺ تحت وطأة بلاء هذه المحنة القاسية صابرًا صبرًا لم يعرف في تاريخ النوازل والبلايا لأحد من قبله، ولا لأحد من بعده، حتى نزلت آيات براءة عائشة بعد قدومهم المدينة بسبع وثلاثين ليلة، فقد بلغه ﷺ حديث الإفك عند وصوله إلى المدينة، تحدث به أهل النفاق ومرضى القلوب، ولا كته ألسنتهم بين أشداقهم وهم يعلمون أنهم كاذبون مفترون، يحسبونه هينًا وهو عند الله عظيم.

وكذلك كان حال آل أبي بكر، فإنهم منذ بلغهم (الإفك) وما تحدث به المنافقون ومرضى القلوب وهم يرزحون تحت فجيعة هذا البلاء العاصف، لا يدرون ما يقولون ولا ما يفعلون، ولكنهم استسلموا لقضاء الله منتظرين حكمه -وهم يتجرعون مرارة الصبر في حيرة وذهول- بكشف هذه الغمة التي أحاطت أثقالها بأكنافهم، وكان أمر رسول الله ﷺ أهم لديهم من أمر أنفسهم.

وصف عائشة لحالها وحال أبويها في أحرج لحظات البلاء:

تقول عائشة -رضي الله عنها- تصف حال أبويها وحال أهل بيتها، وما بلغت منهم المحنة من شدةٍ عصفت بكيانهم،

وزلزلـت أقدامهـم، وأذابـت فيهـم عناصـر الحركة النفسـية والفكرية، فسكتوا سكوت المطلع إلى الغيب، يتسمع حكمه علـى حياته: ووالله ما أعلمُ أهلَ بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر في تلك الأيام.

ثـم تقول عائشـة -رضـوان الله عليها- تصـف حالها من الثقة واليقين الإيماني ببراءتها، وتصف حال أبويها وشـدة ما نزل بهما حين نزول الوحي على رسـول الله ﷺ، وتغشّاه ما كان يتغشاه، فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت فوالله ما فزعـت ولا باليت، قد عرفـت أني بريئة وأن الله -عز وجل- غير ظالمي.

وأما أبواي فو الذي نفس عائشة بيده ما سري عن رسول الله ﷺ حتى رأيت لتخرجن أنفسـهما فرقًا مـن أن يأتي تحقيق ما قال الناس.

اختلاف الروايات في أسماء من صرح بالإفك ومن سمعه فلم يدفعه:

وقد اختلفت الروايات اختلافًا واسـعًا في أسـماء من أفصح بالإِفك، ومن سـمعه فلـم يدفعه ومن تضاحكوا لسـماعه ولم يخوضوا فيه.

والذيـن دار ذكرهم فـي الروايات بأنهم اشـتركوا فيه: هم عبـد الله بن أبي بن سـلول رأس النفاق وزعيـم المنافقين، وهو

الـذي تولى كبـره، فأفصح به وصرح، وشـقي وهلك بالافتراء والبهتـان وقـول الزور، وهذا قول عائشـة -رضـي الله عنهـا-، أخرجه البخاري من حديث الزهري، عن عروة.

قال القرطبي: وأخرجه الإسماعيلي في كتابه (المُخَرَج) علـى الصحيح من حديث معمر عـن الزهري، وفيه: كنت عنـد الوليد بـن عبد الملك، فقال: الـذي تولى كبره منهم عليٌّ بن أبي طالب؟ قال الزهري: فقلت لا. حدثني سـعيد بـن المسـيب وعروة، وعلقمـة، وعبيد الله بـن عبد الله بن عتبة، كلهم يقول: سمعت عائشة -رضي الله عنها- تقول: والـذي تولـى كبـره عبد الله بن أبـي بن سـلول، وكان هذا اللعين ابن سـلول هـو الذي يجتمع إليه فيه، ويستوشـيه، ويشعل ناره.

وذكر القرطبي أن حسـان بن ثابت كان من قالته، واشـترك مـع القائلين مسـطح بن أثاثه، وحمنة بنت جحش، وقد سـأل عبد الملك بن مروان عروة، فقال عروة لم يسم من أهل الإفك إلا حسـان، ومسطح، وحمنة، وعبد الله ابن أبي بن سلول رأس المنافقيـن، وجهل غيرهـم إلا أنهم كانوا عصبة، وقد ذكر عن عائشة في بعض الروايات أن الذي تولى كبره حسان بن ثابت، وهـذا قول مُعارَضٌ بقول عروة: كانت عائشـة تكره أن يُسَـبَّ حسان، وتقول: إنه الذي قال:

فــإن أبــي ووالــده وعرضــي
لعــرض محمــد منكــم وِقــاءُ

براءة حسان من الخوض في الإفك والإفصاح به وشعره في ذلك:

قال أبو عمر بن عبد البر : إن عائشة برأت حسان من الفرية ، وقالت إنه لم يقل شـيئا ، وأنكر حســان أن يكون قال شيئا من ذلك في قوله من قصيدة يمدح بها عائشة –رضي الله عنها– :

حصــان رزان مــا تــزن بريبــة
وتصبح غرثى من لحوم الغوافل
حليلة خير الناس دينًا ومنصبًا
نبي الهدى والمكرمات الفواضل
عقيلــة حي من لــؤي بن غالب
كرام المساعي مجدها غير زائل
مهذبــة قــد طيــب الله خيمها
وطهَّرَهــا من كل شــين وباطل
فــإن كان مــا بُلِّغْــتُ أنــي قلته
فلا رفعت ســوطي إلــيَّ أناملي
فكيف وودي ما حييت ونصرتي
لآل رســول الله زيــن المحافل

وقد تعارض النقل في روايات صحيحة الأســانيد عن عائشة –رضــي الله عنهــا– في حســان بالنفي والإثبــات ، ويجمع بين

قوليهـا فيه، أنه لم يقل إفصاحـا أو تصريحا، وإنما لعله عرَّض بذلك وأومأ إليه في مجلس شـاعري لا يتحفظ عند المسامرة، فنسب إليه أنه تكلم فيه وشارك.

تأويل ما أُبن به حسان في الإفك ومواقفه في الإسلام:

والذي تميل إليه النفس لتعارض الروايات أن حسـان -رضي الله عنه- جرى في مجالس الهالكين بالإفك على طريقة سـمر الشعراء وأهـل الأدب القولـي، يتضاحكـون بالكلمـات والفكاهـة والخبر الساخر، دون أن يقصدوا ما يتعلق بها، وهذا فيهم كما قال تعالى:

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾

(الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٦)

ومن ثم جرى الخلاف فيه بين العلماء: هل خاض في الإفك وأفصح بالافتراء والبهتان أو كان يسمع ولا يدفع؟

وحسـان -رضـي الله عنه- لـه مواقف في الإسـلام من أكرم وأشرف مواقف المجاهدين بلسانه في نصرة الدعوة الإسلامية منذ دخل في سـاحة الإسلام مسلمًا مؤمنًا، محبًا للإسلام ونبيه ﷺ وأهله وآل بيته.

وكان فـي حياته المسـلمة سـيفًا مصلتًا علـى أعناق أعداء الإسـلام من المشـركين وشـعرائهم ينافح عن رسول الله ﷺ، ويدافـع عن أصحابه ودعوتـه، وقصائده الإسـلامية في ديوانه

تحتل مكانا رحبًا وهي من غرر شعره.

وقد ثبت أن النبي ﷺ كان يقول له: «اهجهم وروح القدس معك» وكان ﷺ يسمع شعره ويسر به، ويقول عن شعره في منافراته لشعراء المشركين: إنه أشد عليهم من رشق النبل.

ولو لم يكن له إلا همزيته التي يقول فيها ردًا على أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وكان من أشد أعداء النبي ﷺ قبل إسلامه- لكفاه فخرًا في إسلامه.

أتهجوه ولستَ له بكفء؟!

فشرُّكما لخيركما الفداء

قال نقدة الشعر في هذا البيت: إنه أهجى بيت في شعر العرب، وأنصف بيت، وأنظف بيت، مع ما فيه من قارس الهجاء الوجيع.

رد ابن كثير التهمة عن حسان -رضي الله عنه-:

وقد رد ابن كثير قول من قال: الذي تولى كبر الإفك حسان، فقال وهو قول غريب، ولولا أنه وقع في صحيح البخاري ما قد يدل على إيراد ذلك لما كان لإيراده كبير فائدة، فإنه من الصحابة الذين لهم فضائل ومناقب ومآثر، وأحسن مآثره أنه كان يذب عن رسول الله ﷺ بشعره، وهو الذي قال له رسول الله ﷺ: «هاجهم وجبريل معك».

وحسب حسان من المآثر والمفاخر أنه انفرد في حياته الإسلامية بلقب شاعر الإسلام، وفي قصيدته التي زعم ابن

إسحاق أنه هجا فيها صفوان بن المعطل يقول:

أما قريش فإني لا أسالمهما
حتى ينيبوا من الغيات للرشد
ويتركوا اللات والعزى بمعزلة
ويسجدوا كلهم للواحد الصمد
ويشهدوا أن ما قال الرسول لهم
حق فيوفوا بحق الله والوكد

ولا يرى فيها هجاء لمسلم لا تعريضًا ولا تصريحًا ويروى أن صفوان -رضي الله عنه- بلغه أن حسان يتكلم في الإفك، وأنه هجاه بشعره، فأخذته الحمية قبل أن يتثبت، واعترض حسان فضربه بسيفه ضربة إرعاب وتخويف، وقال له:

تلق ذباب السيف عني فإنني
غلام إذا هوجيت لست بشاعر

عتب النبي ﷺ على حسان تعريضه بقومه في شعره وإكرامه له بفيض عطائه:

وقد لقيهما ثابت بن قيس بن شماس وكعب بن رواحة فأخذاهما وأتوا كلهم رسول الله ﷺ، فقال صفوان: يا رسول الله، آذاني وهجاني، فاحتملني الغضب فضربته، فقال رسول الله ﷺ، «يا حسان، أتشوهت على قومي إذ هداهم الله؟ أحسن يا حسان» فقال حسان: هي لك يا رسول الله، فعوضه رسول الله ﷺ

مــن ضربته بيرُحاء[٣]، وجارية قبطية يقال لها سيرين، قيل: وهي أخت مارية أم ولد رسـول الله ﷺ إبراهيم -عليه السلام- جاء لحسـان منها ولده عبد الرحمن بن حسـان، وكان يفتخر بأنه ابن خالة إبراهيم ولد رسول الله ﷺ.

هـذا الموقـف الكريـم مـن النبـي ﷺ وفيه هـذا التصرف الرحيم مع حسان -رضي الله عنه- يتنافى كل المنافاة مع رواية مـن زعم أن عائشـة -رضـي الله عنها- قالت: الـذي تولي كبر الإفك حسـان، لأنـه لا يعقل أن يكون حسـان هـو الذي تولي كبر الإفك والافتراء على الطاهرة المطهرة أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- وهي أحب الناس إلى رسول الله ﷺ، ثم يلقى من رسـول الله ﷺ هذا العتاب المتلطف مع الإكرام المشـرف بإهدائه أخت أم ولده إبراهيم -عليه السـلام-، وبسـتانًا خرير الماء، كثير الثمر، هذا بعيد جدًا.

تأويل موقف مسطح وتبرئته من الإفصاح بالإفك:

وأما مسـطح بـن أثاثة فإنــه وإن ذكر مع من سـمي من أهل الإفـك في قـول عـروة مجيبًا لسـؤال عبد الملك بـن مروان، لكنه لـم يثبت عنه الإفصاح والتصريـح الموجبان لحد الفرية والقذف، وأقصى ما يتصور في موقفه أنه كان يسـمع ويشـارك بالكلمـة الموماة من غير تصريـح، ويدل لذلـك أنه نفى عن

(٣) اسم بئر. وهو في الأصل اسم رجل أضيفت إليه البئر. (المجلة)

نفسه أن يكون قال شيئًا -أي تصريحًا- كما يدل عليه قول أبي بكـر الصديق -رضي الله عنه- في رده على اعتذار مسـطح بأنه لم يقل شيئًا : لقد ضحكتَ وشاركتَ فيما قيل . فقال مسطح : إنما كنت أغشى مجالس حسان ، فأسمع ولا أقول شيئًا .

قـال القشـيري -كما حكاه عنـه القرطبي- : فأما مسـطح فلم يثبت عنه قذف صريح ، ولكنه كان يسـمع ويشيع من غير تصريح .

وقد قدمنا أن الذي كان يقال في مجالس حسان إنما هو نوع من السمر والتضاحك والتغامز بالأحداث التي تشغل المجتمع ، ويشـهد لذلك أن شعر حسان ينفي أن يكون قد قال شيئًا ، وقد برأته عائشة -رضي الله عنها- عن الإفصاح والتصريح .

لم يثبت عندنا شيء عن إفصاح حمنة بالإفك:

وأمـا حمنـة بنـت جحـش أخـت أم المؤمنين زينـب بنت جحـش -رضي الله عنها- فهي امرأة كغيرها من عامة النسـاء ، تغلـب عليها العاطفة والحمية ، وكانت ترى من فضل عائشـة -رضـي الله عنها- ومنزلتها عند رسـول الله ﷺ ، وعنده أختها السـيدة النبيلة زينب بنت جحش -رضي الله عنها- ، وهي التي كانت تسـامي عائشة من بين نساء النبي ﷺ ، ولكنها لم تكن تلحقهـا ، فلما أرجـف المنافقون بحديث الإفك ، واستوشـوه في مجالسـهم ، وأذاعوه على الأسماع ، وأفصحوا به وصرحوا ،

وكانت مجالس مآنس لمرضى القلوب من ضعفة المسلمين الذين لم تشرب قلوبُهم حبَّ الإيمان، وهؤلاء كانوا مغمورين في المجتمعات لا يعرفون إلا لمامًا، فلم يقم لهم وزن في حضورهم ولا في غيابهم.

ولعل حمنة كانت من اللائي يسترقن السمع من النساء المنافقات وبيوتهن، فتسمع حديث الإفك، وتستطعمه وتستعيده حمية لأختها السيدة التقية أم المؤمنين زينب -رضي الله عنها-.

وشُهِرَ ذلك من أمر حمنة، وذاع في الناس أنها قالت في الإفك، ولم يثبت عندنا في رواية ثابتة أنها أفصحت وصرحت بما يوجب إقامة الحد على المفتري الكذاب.

وكل ما ثبت هو ذكر اسمها مع من زعم عليهم من المؤمنين أنهم قالوا ما قيل في الإفك، دون تعيين لقول على نحو ما ثبت عن الخبيث اللعين رأس النفاق وزعيم المنافقين، عبد الله بن أبي بن سلول الذي صرح بأخبث ما افتري من البهتان والإفك.

لم يثبت عندنا أن أحدًا من خُلَّص المؤمنين صرح بالإفك:

وبهذا التحقق يتضح أننا نرى أنه لم يثبت عندنا اشتراك أحد من خُلَّص المسلمين المؤمنين في حديث الإفك تصريحا يوجب حد القذف، وإنما الذي نما هو إرجاف من المنافقين،

ومرضى القلوب، أفصحوا في إرجافهم عن الافتراء والبهتان والإفك، وهم الذين كانوا يجتمعون له، يستوشونه ويشعلون لهيبه ليحزنوا الذين آمنوا، ويدخلوا عليهم من الفتنة والشك ما يشغلهم عن نشر دعوتهم، وتبليغ رسالتهم، وليسيئوا إلى رسول الله ﷺ في أحب الناس إليه، بألأم ما عرف من لؤم الطبائع البشرية وأخبث ما تلوث به سيرة أطهر الطاهرات، وأفضل الفضليات.

وقد أخبرنا الله تعالى أنه كان في المجتمع المسلم سماعون للمنافقين نمامون، يسمعون أكاذيبهم فينشرونها بين الناس، ليثيروا الفتن، ويسمعون من المؤمنين أحاديثهم فينقلونها إليه.

وهؤلاء السماعون النمامون هم الوصائل الخبيثة لنقل الحديث وإشاعة السوء في المجتمعات، فلا يبعد أن يكون المنافقون قد أوحوا إلى هؤلاء السماعين كما توحي الشياطين إلى أوليائهم أن يبثوا أكاذيب الإفك في مجالس المؤمنين، ليتلقفها منهم ضعفاء الإيمان، ويتلقوها بألسنتهم، متضاحكين، يسترضون بها عواطف الحمية العصبية بسماعها وإذاعتها، وبهذا الطريق الخبيث من كيد المنافقين تنوقل حديث الإفك من بيوت ومجالس المنافقين إلى مسامع المؤمنين في مجالسهم، فجمجم به الهزأة الساخرون الذين يُلقون الحديث فلا يبالون بما فيه، واستطعمه بعض الضحكة

الهازلين، يحسبونه هينًا وهو عند الله عظيم.

وأما قوله تعالى:

﴿عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡ﴾

في قوله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ﴾ (النور: ١١)

فالخطاب فيه للمجتمع المسلم كله بما فيه من صادقي الإيمان وبما فيه من المنافقين ومرضى القلوب والسماعين للمنافقين النمامين الناشرين للإفك والبهتان.

وقد ذكر الزمخشري مع عبد الله بن أبي من المنافقين زيد بن رفاعة، وفي رواية عن عروة بن الزبير أن المشتركين في حديث الإفك كثيرون، وقد سماهم الله عصبة، ولم يسم منهم إلا ما عُلم، وجُهِل الباقون فلم يذكروا، ولو أن أحدًا من الرواة عني بالبحث عن أهل الإفك لوصل إلى أن حديث الإفك حبكة من نسج النفاق وخبث المنافقين، الذين لم يقع في حبائلهم إلا مرضى القلوب والسماعون النمامون.

ويرشح ما ذهبنا إليه أن العلماء اختلفوا: هل حُدَّ أحد من أهل الإفك؟ حكى الماوردي في ذلك قولين بالنفي والإثبات. والمسألة لم يثبت فيها حديث صحيح يرفع الشك ويوجب اليقين، فالله تعالى أعلم بما كان.

كيف بدأت هذه الغزوة؟ وكيف ختمت؟

كانت غزوة (المريسيع) كنانة سهام مسمومة لأحداث جسام، ووقائع خطيرة، دبرها أهل النفاق وفجارهم، لم يقع مثلها في غزوة من الغزوات المسعورة في القتال.

وقد جعل الله ترياق سموم أحداثهم في قيادة النبي ﷺ لمجتمعه المسلم، كلما أبطل منها مفعول حادثة من حوادثها بسياسته الحكيمة المحكمة التي أمده الله بها في مقابلة الأخطار لوأدها في مهدها كشرت عن أنيابها حادثة أعتى منها، وأشرس وأضرى.

وكل حادثة من تلك الحوادث العاتية العاصفة كانت كافية لتذرية رياح تسعرها بلهيب الفتن القواصم وحدة المجتمع المسلم التي كانت تكمن فيها قوته وصوارم عزائمه، والتي يستمد منها انتصاراته الساحقة لقوى أعدائه وأعداء نبيه ﷺ، وأعداء دعوته ورسالته.

ولكن الله تعالى كان لهم بالمرصاد، كلما جاءوا من سوء مكرهم بواحدة أتاهم الله بحكمة تدبيره على يدي نبيه ﷺ بما يبطل كيدهم، ويرغم أنوفهم، ويذل غرورهم، ويفسد عليهم تدبيرهم المتدسس وراء جدر النفاق والفجور.

وهذه الغزوة كانت بأحداثها التي دبرها المنافقون امتحانًا

قاسيًا متتابع الحلقات لصلابة قناة المجتمع المسلم، واختبارًا لقوة شكيمته وتماسك عرى وحدته الإيمانية، وابتلاء لصبره في وجه النوازل ومقابلة الكوارث، واستبانة لحكمة قيادة القائد الأعظم ممثلة في النبي ﷺ في مواجهة الأحداث مهما كان خطرها بمقاومتها وإطفاء تسعرها وإفشال تدبير من دبروها من أعداء هذا المجتمع المسلم، وإبطال سيء كيدهم ولئيم مكرهم لتدمير هذا المجتمع واستئصاله لوقف تيار دعوته ونشر رسالته.

أول سهام الفتنة في هذه الغزوة سهم كاد يقضي على وحدة المجتمع المسلم:

بدأت هذه الغزوة بعيد وصول كتائب المجاهدين بقيادة النبي ﷺ إلى (المريسيع) -ماء بني المصطلق- وقد تزحمت حوله جموعهم ومن انضوى إليهم من شراذم المتربصين الذين كان صغوهم لأعداء الإسلام في حادثة جهجاه بن مسعود الغفاري أجير عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، وسنان بن وبر الأنصاري اللذين ازدحما على الماء، فاشتبكا وتقاتلا، فتناديا بدعوى الجاهلية، فقال جهجاه: يا للمهاجرين، وصرخ سنان: يا للأنصار، فاستجاب لهما سراع الناس، وكادت تقع بين دعامتي المجتمع المسلم فتنة عمياء جائحة مدمرة، أشعل نارها خبيث النفاق، ورأس المنافقين عبد الله بن

أبي بن سلول -لعنه الله- لولا حكمة رسول الله ﷺ وسياسته في إطفاء لهيبها، حيث اجتمع من المهاجرين جموع، ومن الأنصار آخرون، وهموا بالاقتتال، فلم يزل بهم رسول الله ﷺ يخفضهم حتى فاءوا إلى رحمة الله، وانكمد ابن أبي غيظًا بحقده. وهدأ الناس.

ثم ما لبث الناس فواق شاة حتى أقبلت الفتنة الصماء بجحافل ظلماتها، فاغرة فاهها لتلتهم حياة المجتمع المسلم بين طواحين أضراسها، وضراوتها الشرسة.

السهم الثاني في فتن هذه الغزوة هو سهم (الإفك) الذي كاد يقوض دعائم تبليغ الرسالة:

تلك هي فتنة (الإِفك) التي أشعل ثقابها وأورى نارها زعيم المنافقين ورأس النفاق عبد الله بن أبي بعد أن خاب سعيه في إشعال نيران الفتنة الجاهلية، فخب فيها وأوضع خلال صفوف المجتمع المسلم يبغيه الفتنة، وفي المجتمع المسلم سماعون له ولأضرابه من أحلاس النفاق وغثاء المنافقين[٤]، ومرضى القلوب الذين كانت رواسب الوثنية الجاهلية والعصبية القومية تحتل من أنفسهم مكانًا فسيحًا.

وفي هذه الفتنة الخرساء قاء ابن أُبي كل ما في قلبه من

(٤) الحلس ما يفرش ليجلس عليه. ويستعار للملازمة فيقال هو حلس نفاق أي لا يفارِق النفاق. (المجلة)

عصــارة النفاق الكفور، وتبذلت جراح حقده عن صديد الكفر المنافق والفجور الخبيث.

وبهــذه الروح الفاجرة الخبيثة تولى ابن أُبي كبر هذه الفتنة المرذولــة الســمجة، والبهتــان المفترى، والإِفــك المختلق، وانضــوى تحــت جناحــه من كان على شــاكلته فــي النفاق من الذيــن أحرقت عصبية الجاهلية أفئدتهم في صدورهم، وأذابت أكبادهــم بين ضلوعهم، فنفثــوا دخان الغيــظ الخانق والحنق المغيــظ، وتقولــوا بالباطل على أطهــر الطاهــرات، الصديقة بنــت الصديق -رضي الله عنهما-، حتى أبطله الله تعالى بما لم يبطل به فرية وبهتانًا قط، وحتى غدا شــر هذا الإِفك الكذوب خيرًا لكل من ناله منه رشــاش، وبــاء المبطلون الأفاكون بالعار والشــنار، ولطخــت وجوههم بالخــزي والخــذلان، وطحنهم كلــكل الخطــاب الإِلهــي المحفــوف بــكل ســمات التبجيل والتعظيم للسيدة الطاهرة

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾

(النور: ٢٦)

تنويهًــا بعظمة ســيد المرســلين، وبيانًا لعلو مكانتــه عند ربه، وإعلاء لمقام حرماته، وتطهيرًا لســاحته -طحنًا أذاب منهم كل ذرة من ذرات الإِنسانية في هذه الحياة، ولعذاب الآخرة أخزى وأعظم.

وكان هذا النصر المؤزر في هذه الحروب النفسية أجل وأعظم

أثرًا من النصر المؤيد في جولات القتال في ميادين الحروب.

وكان من أجل النعم الإلهية على المجتمع المسلم في قصة (الإفك) أن الله تعالى حمى أمهات المؤمنين كلهن عن التكلم في محنة هذا البهتان الخبيث، فلم يؤثر عن واحدة منهن فيها كلمة واحدة، وهن ضرائر عائشة -رضي الله عنها- وشريكاتها في القرب الداني من رسول الله ﷺ، وهن اللائي كان يخشى عليهن من تحريش الغيرة أن تدفعهم أو بعضهم إلى التحدث فيما يحوم حول ذلك.

ولكن الله تعالى حفظهن جميعًا حفظًا لمقام حرم رسوله ﷺ أن تظل عروش بيوتهن في خلوتهن أو جلوتهن معه ﷺ من لم تكن في أدبها النفسي، وتدينها ومراقبة ربها في ذروة السمو والفضل والشرف، ومعالي مكارم الأخلاق تأدبًا بأدب رسول الله ﷺ ونشأة على تنشئته لهن وتربيتهن بما يعصمهن عن الانزلاق إلى مزالق الباطل، وتقوله على من يعرفن أنها أحب الناس إلى رسول الله ﷺ، وأعزهن عنده، وأعرفهن بمطارح أنظاره، وأسرعهن إلى التعلق بأسباب رضاه في كل ما تقر به عينه ﷺ.

هل خرجت أم سلمة مع النبي ﷺ في غزوة بني المصطلق؟

ومن ألطف ذلك وأحمد محامده أن القسطلاني ذكر في المواهب أن أم المؤمنين السيدة أم سلمة -رضي الله عنها- كانت رفيقة عائشة في الخروج إلى هذه الغزوة، فقال: وخرجت

عائشــة وأم ســلمة -رضي الله عنهما- ، ومر الزرقاني على قول القسطلاني في شرحه للمواهب ولم يعلق عليه بشيء .

وهــذا قــول يظهر أنه مما انفرد به القســطلاني ، أو وقع فيه وهم ، فنقل من رواية وقصة أخرى إلى قصة غزوة بني المصطلق ورواية البخاري في قصة (الإفك) من حديث عائشة عن الزهري عن عدد من شــيوخه عيون السلف وأكابره ، تخالف ذلك تمام المخالفة ، قالت عائشــة رضي الله عنها : كان رسول الله ﷺ إذا أراد ســفرًا أقــرع بين أزواجــه ، فأيتهن خرج ســهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه .

قالت عائشــة فأقرع بيننــا في غزوة غزاها -هــي غزوة بني المصطلــق- فخرج فيها ســهمي ، فخرجت مع رســول الله ﷺ بعدمــا أنزل الحجاب ، وســند هــذا الحديث عنــد البخاري من أقــوى وأوثق الأســانيد ، لعلو درجة رجاله من شــيوخ الزهري ، ورواية القســطلاني لم نوفــق إلى معرفة ســندها ، وهي مخالفة لما هو متعارف من عادته وســنته ﷺ في السفر ببعض زوجاته بعد الإقراع بينهن ، تحقيقًا للعدل والمساواة في الحقوق ، كما يقتضيه أســلوب عائشــة -رضي الله عنها- في حديث الزهري الــذي أخرجه البخاري عنه ، من قولها ، كان رســول الله ﷺ إذا أراد ســفرًا أقــرع بيــن أزواجه ، فهــذا التعبير يفيــد أن هذا كان من عادته وســنته في الســفر مع بعض زوجاته ، فرواية البخاري

أرجح، بل أصوب إلى أن يظهر غير ذلك.

وكيفما كان الأمر فإن أم المؤمنين أم سلمة -رضي الله عنها- داخلة في عموم ما كان من أزواج النبي ﷺ في حفظهن عن التكلم في قصة الإفك بشيء، وهي معروفة في سيرتها بأنها كانت من أوزن بنات حواء عقلًا، ولو لم يكن لها من ذلك إلا مشورتها في الحديبية لكفاها فضلًا وشرفًا.

موقف نبيل للسيدة أم المؤمنين زينب بنت جحش في قصة (الإفك):

وقد خص الله تعالى أم المؤمنين السيدة زينب بنت جحش بموقف نبيل من عائشة -رضي الله عنهما- في قصة الإفك وهي التي كانت تناصبها عند رسول الله ﷺ، مما كان يُخاف منه العثرة، ذلك أن رسول الله ﷺ خصها بالسؤال عن عائشة قبل أن ينزل الوحي ببراءتها وطهارة ذيلها من رجس (الإفك) وافتراء البهتان، فقال لها: «ماذا علمت أو رأيت؟» فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما رأيت إلا خيرًا.

قالت عائشة -رضي الله عنها- تثني عليها وتعرف لها فضلها في دينها وأدبها، وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ، فعصمها الله بالورع، وطفقت أختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك.

ونحن نرى أمر حمنة بنت جحش أخت أم المؤمنين زينب

بنت جحش مشتبهًا علينا، لا نستطيع أن نَبُتَّ فيه بحكم، لأن الحكم عليها بدون دليل قاطع بأنها خاضت في (الإفك) والبهتان وهي لم تفصح ولا صرحت بالقذف الموجب كالحكم على من زعم عليها بأنها خاضت في (الإفك) وصرحت وأفصحت بالقذف الموجب، وليس في يده حجة على إثبات ما يزعم أنه قد كان منها سوى ما جاء في الروايات المتعارضة في إيجاب العقوبة عليه حدًا أو تعزيرًا زاجرًا.

تناول سيرة الصحابة ينبغي أن يكون قائمًا على تحري الحق الصريح:

ونحن ندين بأن سيرة أصحاب رسول الله ﷺ لها قبس من نور سيرته ﷺ، فكما يجب في تناول سيرته ﷺ أن يكون هذا التناول قائمًا على البحث المتعمق والتحقيق الممحص -فلا يقبل فيه إلا ما ثبت ثبوتًا بينًا بالدليل والحجة سندًا وتفقهًا، ولفظًا ومعنى- يجب في تناول سيرة أصحابه -رضوان الله عليهم- أن يكون هذا التناول مستهدفًا للحق الذي لا افتراء فيه، ولا يكفي في القول به وجوده في روايات متعارضة، قد يصح سند بعضها، ولكن متونها وحقائقها ومعانيها قد تتعارض مع ما عرف عن المجتمع المسلم إذ ذاك من التوقف في قبول المظنونات في غير الأحكام الجزئية التعبدية فضلًا عن مطارح المشكوكات المريبة.

وليس هذا منا ميلًا إلى عصمة الصحابة -رضوان الله عليهم-

عـن الخطـأ والمخالفة، ولكنـه جنوح منا إلـى القول بوجوب التثبـت فيما ينقل من سـيرتهم وأحـداث حياتهم، وليس أحد من البشـر معصومًا سوى أنبياء الله ورسـله، حفظًا لشرائع الله وأحكامه، حتى لا يتعبد الناس إلا بما شرعه الله.

والـذي أدخل علينا الاشـتباه فـي أمر حمنة موقـف أختها أم المؤمنين السـيدة زينـب بنت جحش -رضـي الله عنها-، ذلك الموقـف النبيل من قصة (الإفك) وقد سـألها رسـول الله ﷺ: «وماذا علمـت؟ وماذا رأيت؟» فأجابت بما أمـلاه عليها ورعها فـي دينها وتقواها في إيمانها، وأخبرت عن الطاهرة المطهرة أم المؤمنين عائشـة -رضـوان الله عنهما-، فقالت: والله ما علمت إلا خيـرًا، إذ كيـف يكون هـذا الموقف النبيل مـن أم المؤمنين زينب بنت جحش أخت حمنة، ثم تسـمع زينب أن أختها حمنة تطلق لسـانها في البهتان المفترى، تحارب لها في هذا الموقف الآثـم -كمـا تقول الروايـة- ولا يعرف عن زينب ولـو في رواية واحدة أنها زجرت أختها حمنة عن الخوض في هذا الباطل والإثم المفترى لتردها عنه، قيامًا بما تعلم من براءة عائشـة -رضي الله عنها-، وحماية لحرمة رسـول الله ﷺ، والرواية عرضة للزيادة والنقـص فـي عباراتها، وعرضـةٌ للوهم في ألفاظها وأسـلوبها، وعرضـة للسـكوت حيث لا يحسـن السـكوت، ولم نـر رواية أخرجت حمنة عن الخوص في (الإفك) أو رواية نفت عنها الحد

فيمن حد على قول من قال بإقامته عن الخائضين فيه.

***

جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق تؤخذ في سبي قومها:

ولما انتهى أمر الغزوة بهذا النصر الخاطف عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة منصورًا مظفرًا تساق الأسرى والغنائم بين يديه، وكان ذلك شيئًا كثيرًا، أنعش المجتمع المسلم، وأغناه، والروايات متفقة على أن عدد الأسرى كان أكثر من سبعمائة، وكانت غنائم الإبل ألفي بعير، وغنائم الشاء خمسة ألاف شاة، والسبي من النساء والذراري أهل مائتي بيت.

وقسمت هذه الغنائم ووزعت الأسرى والسبايا بين المجاهدين وكانت من بين السبايا السيدة جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق، فوقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس، أو في سهم ابن عم له، وعند الواقدي أنها وقعت في سهميهما شركة بينهما، فخلصها ثابت من ابن عمه بنخلات، ثم كاتبها ثابت على تسع أواق من ذهب.

شخصية جويرية وتعززها بسيادة أبيها على قومه:

كانت السيدة جويرية بنت الحارث سيد قومه قد نشأت في ظل سيادة أبيها لقومه في عز وسؤدد وتمجد، وللبيوت أعظم الأثر في تنشئة ناشئيها، وتربية بناتها وبنيها، وقد

تزوجت جويرية في حداثة سنها قبل أن يغزو النبي ﷺ قومها، وكان زوجها مسافع بن صفوان أحد فتيان خزاعة، جِذْم بني المصطلق[٥]، وأصل دوحتهم، اقترنت به في حداثة سنها قبل أن تتم العقد الثاني من عمرها، وقد قتل عنها زوجها مسافع مشركًا فيمن قتل من بني المصطلق الذين أسرعوا إلى القتال، فجندلتهم السيوف المسلمة.

والسيدة جويرية -رضي الله عنها- كانت على حداثة سنها حين سبيت قد زينها الله تعالى بعقل رصين، وتفكير حصيف، وخلق كريم، وحسن تأت للأمور، وفصاحة تعرف مواقع الكلام وتأثيره في النفوس الكريمة، وتعزز لا يصبر على الضيم، وسؤدد سما بها عن الرضا بمذلة الرق والتطلع إلى الحرية الكريمة، فرضيت بما كاتبت عليه ثابت بن قيس الأنصاري على بهظه، لأنها كانت نظّارة إلى معالي الأمور، تخوض لها لجج المكارم لتجلس على ذروتها، تصفها أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنهما- فتقول: وكانت امرأة حلوة ملاحة، أي ذات بهجة وحسن منظر.

أقلام الأقدار تحول حياة جويرية إلى أعز سؤدد تطمح إليه امرأة في الحياة:

وكان من سمو نفسها وطموح آمالها ورفعة تصوراتها، أنها بعد أن كاتبت على نفسها بهذا القدر الباهظ من المال أن

(٥) جذم القوم: أصلهم. (المجلة)

جاءت إلى سيد المكرمات والمكارم وأكرم البشر، وأعلمهم بمنازل الناس، وأحقهم أن تمد إليه يد العرفان لانتشاله من وهدة ألقته فيها أعاصير الدبور الجاهلية، فباعدت بينه وبين حياته التي كانت كلها نسائم من الصبا، ورشحات من ندى رغد العيش الرفيف -محمد ﷺ- هو الذي هزم قومها، وأسر رجالهم، وسبى نساءهم وذراريهم بالأمس القريب، فكانت إحدى سبايا قومها، وهي بنت سيدهم، ووقعت في سهم رجل من كواهل المسلمين وفصحاء الأنصار، ثابت بن قيس بن شماس، خطيب رسول الله ﷺ في محافل المنافرات، فلم تصبر على بلاء الرق -تستعينه على الخروج من سجن حريتها لتتنفس عبير الكرامة وتستشعر العزة التي كانت تتقلب بين أزاهرها، وطلبت منه ﷺ أن يعينها، وأخبرته بخبرها فقالت: يا رسول الله إني امرأة مسلمة، أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث سيد قومه، وكان من أمري ما لا يخفى عليك، وفي رواية أنها قالت: قد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، ووقعتُ في سهم ثابت بن قيس بن شماس، فكاتبني على ما لا طاقة لي به، ولا يدان لي ولا قدرة عليه، وهو تسع أواق من الذهب، وما أكرهني على ذلك إلا أني رجوتك صلى الله عليك، وجئتك أسألك في كتابتي.

هيه يا أقدار الغيب!! ماذا كتبت ألواحك الأزلية لجويرية

بنت الحارث المصطلقية؟ هل ستعود إلى حظائر بني المصطلق وقد تحقق لها آمالها في الحرية، وفي زواجها من أحد فتيانهم؟ هـذا أقصى ما كانت تتمناه، أن يخفف عنها ثقل كتاباتها، وأن تتحـرر، وأن تعود إلـى خدرها في بني المصطلـق، ولكن أقدار الغيـب قالت للحياة: لا ليـس هذا مكان هذا النبل المتسـامي بمشاعره إلى ذرى الشموخ، بل مكانها أن ترتفع فوق ما تخيلته مـن عظائـم آمالهـا، فاكتبوها على قـدر مكانها مـن عظمة من جاءته لتسـأله أن يعينها فـي كتابتها لتتحرر من العبودية وتعود حرة كريمة على نفسـها وعلـى قومها، لا إلى خدور حرائر بني المصطلق لتكون كما كانت قبل سـبيها سـيدتهن، لأنها بنت سـيدهن، ولم يحملها على الرضا بهذه الكتابة الباهظة التي لا تطيقها ولا يدان لها بها، ولا تقدر عليها إلا رجاوتها في مكارمه ﷺ لتحقيـق هـذه العظيمة في نظرها، ولهذا جاءته تسـأله في كتابتها، ولكن تسـاموا بها فوق هامات آمالها إلى ميزان مكارم من وضعت رحال رجاوتها بين يديه لتكون معه في أعلا عليين، أما للمؤمنين، وحليلة سيد الأولين والآخرين.

ذاك أمر أبرم قبل أن تخلق دنيا الناس، وقبل أن تأتي جويرية إلـى الحياة بل قبل أن تكون علـى الأرض حياة، فليأخذ محمد ﷺ بيدهـا وليطيرها معه إلى ربض الفراديس، وإلى أرفع منزلة فـي الجنان ليخرجها وهي تضع رجاوتهـا وآمالها بين يديه من

سـجن الرق والعبودية لغير الله تعالى إلى آفاق السـؤدد والعزة ولتكـن زوجًا لأكرم البشـر، ولتكن أمًا للمؤمنيـن، لثابت بن قيـس، ومـن فوقه، ومن دونـه من سـائر أبناء هـذه الحياة من المؤمنين والمؤمنات، وسيدة من سيدات نساء العالمين.

أي قلم يستطيع أن يصور مشاعر السيدة الجليلة جويرية وقد صارت بكلمة واحدة أما للمؤمنين وزوجة لسيد المرسلين:

ليت للقلم قدرة على تصوير المعالم النفسـية التي أفعمت كل ذرة في إحساس السـيدة أم المؤمنين جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق، واستأثرت بمشاعرها لحظة أن قـال لها سـيد الأولين والآخرين وهي تسـأله كتابتها: «هل لـك في خيـر من ذلك؟» فقالـت: وما هو يا رسـول الله؟ وهذا سـؤال من طوفت به أنوار الغيب فأضاءت له آفاق الحياة ليرى بخيالـه وأحلامـه مكانه الجديـد منها، فقال لهـا ﷺ: «أؤدي عنك كتابتك وأتزوجك».

وافرحـة الأبـد!! أي غيـثَ روِيٍّ هذا الذي جادت به سـماء الغيب لتسـقي بنميره قلبًا كان قبل لحظة يتحرق تطلبًا لأدنى درجات الحرية البشرية، فماذا جرى في صحف المقادير؟

أهذا حلم نائم؟ أم حقيقـة يقظان بذلته المقادير حياة بحياة، فرفعتـه من حضيض العبودية الإنسـانية إلى قمة العز والسـؤدد، وبوأته ذروة السـمو الإنساني؟ وأي سمو أسمى وأجل وأعظم من

هذا الذي تسمعه جويرية بنت الحارث المصطلقية من سيد الخلق محمد ﷺ، وقد جاءت إليه تسأله أن يعينها على أداء كتابتها التي لا طاقة لها على أدائها، ولا قدرة لها عليها، وقد رجته لها، وهو الذي يرجى للعظائم «أؤدي عنك كتابتك وأتزوجك؟».

وكانت جويرية حين تكلم رسول الله ﷺ، وتسمع كلامه مليئة الفؤاد بالأمل المرجى، تتكلم وتسمع وهي ثابتة الجأش رابضة القلب ساكنة الفؤاد مضيئة الروح، كأنما تقرأ آيات مستقبلها في صحف الغيب بعيني بصيرتها، فأجابت رسول الله ﷺ، فلم تتلعثم ولم تتردد ولم تتأن ولم تتريث، ولكنها أسرعت بروحها وقلبها وعقلها ووجدانها ومشاعرها وهي تملي على لسانها: نعم، يا رسول الله، قد فعلت.

بركات جويرية على قومها بصهرهم لسيد البشر:

أجل، أُبْرِمَ في الأرض ما كان مبرمًا في السماء، وجفت الصحف ورفعت الأقلام، ودخلت السيدة جويرية إلى خدرها أما للمؤمنين، وزوجًا لمحمد ﷺ، وخرج النبأ العظيم همسًا إلى الناس، فتسامعوه بينهم، وتعالموه في محافلهم، وأضاء حديثه الآفاق، كما يضيء لمع البرق في السماء، وقال المسلمون: إن رسول الله ﷺ قد تزوج السيدة جويرية بنت الحارث المصطلفية -رضي الله عنها-، فأرسلوا كلهم ما في أيديهم من السبي وقالوا متعاظمين: هم أصهار رسول الله ﷺ.

قالــت عائشــة -رضي الله عنها- تصور هـذا الموقف النبيل فــي جميع جوانبه بأوجز وأبرع أســلوب: فما رأينا امرأة أعظم بركة علــى قومها منها، فلقد أعتق الله تعالى بها مائة أهل بيت من بني المصطلق.

هــذه هي أشــهر الروايات في قصة جويرية وزواج رسول الله ﷺ بها، وما كان في هذا الزواج من خير وفضل على قومها في عتقهم من رق العبودية بســببه، وانطلاقهم أحرارًا في حياتهم، لأنهم صاروا أصهار رسول الله ﷺ.

روايات أخرى في قصة زواج رسول الله جويرية:

وفــي رواية عند الواقدي أن رســول الله ﷺ أرســل إلى ثابت بن قيس عندما أخبرته خبر كتابتها، فقال ثابت يجيب رســول الله ﷺ: هي لك يا رســول الله بأبي وأمي، فأدى ﷺ ما كان من كتابتها، وأعتقها وتزوجها.

وروى البيهقــي عــن جويرية، قالت: رأيــت قبل قدوم النبي ﷺ بثــلاث ليــال كأن القمــر يســير مــن يثرب حتــى وقع في حجــري، فكرهت أن أخبر أحدًا، فلما ســبينا رجــوت الرؤيا، فأعتقني وتزوجني.

وذكر ابن هشــام أن النبي ﷺ اشــتراها من ثابت بن قيس، وأعتقها وتزوجها، وأصدقها أربع مئة درهم.

وفي رواية ذكرها شــارح المواهب أن أباها جاء بفدائها،

وكان الفداء قطيعًا من الإبل، ولكنه لما دنا من المدينة غَيَّبَ عنها بعيرين في شعاب العقيق، كانا قد أعجباه، ثم أتى رسولَ الله ﷺ، فقال له: يا محمد، هذا فداء ابنتي، فقال له رسول الله ﷺ: «فأين البعيران اللذان غيبتهما في العقيق في شعب كذا، وكذا» فقال الحارث: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، فوالله ما اطلع على ذلك إلا الله، فأسلم الحارث، وأسلم معه ابنان له، وناس من قومه، وأرسل إلى البعيرين فجاء بهما، ودفع الإبل إلى رسول الله ﷺ، ودفع رسول الله ﷺ إليه ابنته جويرية فأسلمت معهم وحسن إسلامهم، فخطبها رسول الله ﷺ إلي أبيها فزوجه إياها، وأصدقها أربع مئة درهم.

وعند ابن سعد من مرسل أبي قلابة: سبى رسول الله ﷺ جويرية وتزوجها، فجاء أبوها فقال لرسول الله ﷺ: إن ابنتي لا يُسبَى مثلها فخل سبيلها، فقال له رسول الله ﷺ: «أرأيت إن خيرتها أليس قد أحسنت؟» قال أبوها: بلى، فأتاها أبوها فقال: إن هذا الرجل قد خيرك فلا تفضحينا فقالت: فإني أختار الله ورسوله.

نفحات السماء كانت هي المختارة للسيدة جويرية طريقها إلى أعز وأشرف حياة:

وهذه نفحة من نفحات الإنعام الإلهي الذي جرت به أقلام المقادير على صحف الغيب، أملى آياتها العقل الحصيف،

والرأي الموفق الرصين، وخط حروفها الإيمان الراسخ الرزين، وأوحى بها الفكر المتسامي عن رغائب الأرض في ترف البيت المتسيدة فيه بمواريث الجاهلية التي لا تعرف إلا فرشًا وثيرًا، وطعامًا شهيًا، وشرابًا هنيًا، وذواقًا مريًا بين أتراب ضواحك، ينعمن لكل رغيبة لسيدة الندي، والحياة المعطلة بالترف عن الحركة النفسية أو الفكرية، أو البدنية تتصنع بالفراغ الملول لتملأ به جو الندي سمومًا قواتل، تستحليها الضواحك لتقتل بها شبح الفراغ استحلاء النسيم في وجه الصباح الندي بِطَّل الربيع.

وإلا فما الذي يحمل امرأة مثل جويرية بنت سيد قومها بني المصطلق على سرعة رضاها وهي في عمر الزهرة التي تطل من برعمها متنفسة أنفاس الحياة مع ندى الصباح في الربيع؟

أجل، لقد وضعتها مقادير الغيب وضعًا ضاقت به نفسها فلم تحتمل إحكام حلقاتها حول عنق حريتها إذ أُخذت سبية بين سبايا قومها، وهي بنت سيدهم، فكوتبت لتفتدي حريتها كتابة تعجز عن أدائها، ولم يحملها على قبول ما لا طاقة لها به إلا أنها ألقت بآمالها ورجاواتها بين يدي أكمل البشر وأكرم الخلق محمد ﷺ، وجاءته تسأله في كتابتها، وهو ﷺ في بيت أم المومنين عائشة -رضي الله عنها-.

غيرة عائشة على رسول الله ﷺ هي قمة الحب ورسوخ الإخلاص:

قالت عائشة -رضي الله عنها- تصف جويرية فأنصفتها: «وكانت امرأة حلوة مُلاحة، لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه» والملاحة وصف مبالغة في الملاحة، وهي استواء مواطن الحسن والحلاوة وهي من قولهم طعام مليح إذا كان فيه من الملح بقدر ما يصلحه، فيطيب طعمه، قال السهيلي في الروض: ولذلك إذا بالغوا في المدح قالوا: مليح قزيح، فمليح من ملحت القدر، وقزيح من قزحتها أي طيبت نكهتها بالأفاوية، وهي الأقزاح.

ثم قالت عائشة: فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها وعرفت أنه سيرى منها ﷺ ما رأيت وهذا القول من السيدة عائشة -رضي الله عنها- إنما هو نفثة من نفثات الغيرة على رسول الله ﷺ لشدة حبها له ﷺ وغيرتها عليه، وكان لهذه الغيرة عند عائشة -رضي الله عنها- في حياتها معه ﷺ مظاهر أكثر مما كان عند غيرها من الزوجات الطاهرات، وفي حياتهن معه ﷺ أكثر من دليل على أن عائشة -رضي الله عنها- كانت تعيش معه ﷺ ذروة هذه الغيرة التي استحوذت على مشاعرها.

ورسول الله ﷺ قد أوتي من صفاء الطبيعة البشرية ما لم يؤته أحد من الخلق، فكان سوي المزاج، عليمًا بمواقع الذوق الكمالي في خصائص الإِنسان.

رسول الله ﷺ أكمل البشر حسا إنسانيا وأصفاهم طبيعة وأذوقهم لحلاوة الكمال الإنساني حسا ومعنى:

وقد أضفى الله تعالى على رسوله ﷺ من الكمال الإنساني في جميع مواقعه من الطبيعة البشرية ومنحه من الاعتدال الحسي والمعنوي ما ميزه به وفضله على سائر أفراد البشر، وجمع له به مظاهر الاستواء في تذوق كل كمال أوتيه الإنسان في تقويمه الحسي ومداخل نفسه، فلا تتفاوت جوانب طبيعته ﷺ في تذوق طعم هذا الكمال.

ومن ثم كان تذوقه للكمال الإنساني، وإحساسه به مستوي جوانب الإدراك لمواقع الاسترواح الجمالي في كل ما تستحليه النفوس الكريمة حسًا ومعنى، وفي كل ما تستطيبه الأمزجة المتوازية في عناصرها وميولها.

وفي هذا الإطار من الطبيعة الكمالية التي جبل عليها رسول الله ﷺ ينبغي أن توضع الخطوط الراسمة لتذوقه ﷺ طعم الكمال في مستويات البشرية، وفي مستويات الجمال الكوني الممثلة في عناصر الكون الطبيعية التي هي منابع الجمال فيه.

لأنه ﷺ أوتي من صفاء الطبيعة البشرية ما لم يؤته أحد من العالمين، وهذا الكمال المتوازن في صفاء الطبيعة البشرية هو المقصود بكمال الرجولية المطلق في كملة البشر، فلا حرج قط في أن يوصف محمد ﷺ بكل ما يندرج تحت هذا الكمال

الرجولي، لأن هـذا الكمال الرجولي هو جماع صفات الكمال البشري في الرجل.

ومحمد رسـول الله ﷺ أكمل البشر في إنسانيته، وأعرفهم بمواقع الكمال الحسي والمعنوي من أوصاف الرجولية.

في قوله تعالى:

﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾

(الأحزاب: ٥٢)

إشـارة إلـي مـا جبـل عليـه ﷺ من تـذوق حـلاوة الكمال الإنسـاني حسًـا ومعنـى، ولأمر (ما) قـال الله تعالى لرسـوله محمـد ﷺ بعد تخيير أمهات المؤمنين اللائي كن في عصمته ﷺ ومات عنهن:

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ (الأحزاب: ٥٢)

إعـزازًا لأمهـات المؤمنين اللائـي اخترن الله ورسـوله على (من) و(ما) سـواهما، فقصـره ﷺ عليهن إكرامًا لهن، جزاء اختيارهن، ورضائهن كلهن.

ولعله للإشـارة إلـى ما قلناه مـن أنه ﷺ أرق الناس حسًـا، وأرهفهـم ذوقًا، وأعرفهم بمواقع الكمال الحسـي والمعنوي، ولكـن الله تعالى مع الإشـادة بصفاء طبيعة رسـول الله ﷺ نوه بهذا الموقـف النبيل، موقـف أمهات المؤمنين هـذا الموقف

الإيمانـي البالـغ ذروة الإخلاص عندهن ليرشـد عبـاده أن هذا الموقـف أجل عنـد الله وأعظم مـن تحقيق رغبة كمال حسـي عند رسوله ﷺ ، والله وحده هو المحيط بأسرار كلامه العزيز ، وأسرار مداخل نفوس خواصه من البشر .

بدأت غزوة بني المصطلق بأعتى نوازل البلاء والمحن ثم ختمت بأسعد ما يسعد كرائم النفوس:

وبعـد : فهكذا بدأت غزوة بني المصطلـق بما بدأت به من أحداث الفتن الجسـام التي دبرها النفاق تحت أسـتار الظلام ، وكوارث النوازل العظام ، التي أذاقت المسلمين جرعًا من مرارة أحداث (أحـد) ولكن الله تعالى بمنه وفضلـه أخرج منها نبيه محمدًا ﷺ ومجتمعه المسـلم وأهـل بيته الأكرمين ، وصاحبه وصديقه الأمين كما يخرج الذهب المصفى والجوهر المخلص مـن مخلطـات المعادن ، وألويـة النصر تخفق فوق رءوسـهم ، وحفاوة الله تعالى تكنفهم من جميع جوانبهم ونعمه السـوابغ تحيط بهم من أقطارهم .

وهكذا ختمت بإعراس النبي ﷺ بالسـيدة الجليلة جويرية بنت الحارث ابن أبي ضرار سـيد بنـي المصطلق التي خلع الله عليهـا جلابيـب السـيادة الحقيقية بإعـراس النبـي ﷺ بها ، فكانـت أمـا للمؤمنيـن تعظيما وتوقيـرا وإسـعادا لها بكنف رسـول الله ﷺ ، وإدخالًا للبهجة على رسول الله ﷺ بما وهبها الله من كمال إنساني كانت به من صفوة نساء العالمين .

وقد زاد الله عز شـأنه أم المؤمنين السيدة جويرية زوج النبي ﷺ -رضـي الله عنهـا- كمالًا فـوق كمالهـا، فجعلت حصافة عقلها وزكانة تفكيرها وصفاء قلبها وإشـراق روحها بين يدي رسول الله ﷺ، وهي تلحظه في عبادته الخاصة إذا كان عندها، وتشـهده في تقديسـه وتسـبيحه لخالقـه، وتصغـي إليه وهي تسمع أحاديثه في أدب الإسلام الاجتماعي، وأحكامه العبادية، وشـرائعه النظامية، وتلطفه في عشرته الزوجية، وحكمته في معاملتـه الداخليـة والخارجيـة، فتعـي ذلك كله وعيًـا ضابطا يرويه عنها من أصحابه الذين أخلصوا حياتهم للعلم، يأخذونه عن رسـول الله ﷺ مشافهة أو رواية أقرب ما تكون للمشافهة، لأنه إما سـماع عن أقرانهم أو شهود لمجالس سماعه، أو تلقيًا لأسـراره من أمهات المؤمنين زوجاته، وأخذا لحقائقه العملية ممن كان أهلًا لحمل هذه الحقائق والأسرار التشريعية والآداب السلوكية في تربية البيت ومن يضمه بين جنباته.

السيدة أم المؤمنين جويرية كانت من الله بمنزلة في علمها وعملها وورعها وإشراق روحها:

وهـؤلاء يلقونه إلى من يرويه عنهم صادقًـا أفضل ما يكون الصـدق مطلوبًـا، وضابطًا أصـدق ما يكون الضبط منشـودًا، ومن ثم كانت السيدة جويرية أم المؤمنين وزوج سيد العالمين -رضـي الله عنها- عالمة بما تسـمع، عاملة بمـا تعلم، فقيهة عابـدة، تقية ورعة، نقية الفؤاد مضيئة العقل، مشـرقة الروح،

تحب الله ورسوله ﷺ، وتحب الخير للناس أجمعين.

وكانت -رضي الله عنها- تروي من حديث رسول الله ﷺ، ناقلة لحقائق الدين من خزائنها عند من تنزلت عليه ﷺ، يرويه عنها سدنة العلم من علماء الصحابة -رضي الله عنهم-، لينشروه في المجتمع المسلم علما وعملًا، وفي عامة المجتمع الإنساني دعوة وهداية.

روى عنها حبر الأمة عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-، وجابر بن عبد الله وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن السباق، والطفيل ابن أخيها وغيرهم من الأجلاء.

وكانت أم المؤمنين جويرية -رضي الله عنها- من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات القانتات، الصابرات في مجال مناجاة الله تعالى وتحميده وتقديسه وتسبيحه، أخرج الترمذي بسند صحيح عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- عن جويرية -رضي الله عنها-: أن النبي ﷺ مر عليها وهي في مسجدها أول النهار، ثم مر عليها قريبًا من نصف النهار، فقال لها: «ما زلت على حالك؟» قالت: نعم، قال ﷺ: «ألا أعلمك كلمات تقوليهن؟ سبحان الله عدد خلقه، ثلاث مرات، سبحان الله رضا نفسه ثلاث مرات، سبحان الله زنة عرشه، ثلاث مرات، سبحان الله مداد كلماته ثلاث مرات».

وروى مسلم في صحيحه، وأبو داود في سننه عن جويرية

-رضي الله عنها- ، قالت : أتى عليّ رسول الله ﷺ ، فقال : «لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات ، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن : سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ، ومداد كلماته» .

أي فضل أفضل وأرفع ، وأي شرف أشرف وأعلى من فضل وشرف جمعا بين فضائل الدنيا وشرف الآخرة ختمت به غزوة من غزوات رسول الله ﷺ -أو واقعة من وقائع تاريخ السيرة النبوية الشريفة في أحداثها ومسيرتها وهي تحمل لواء الدعوة إلى الله ناشرة رسالة الحق والهدى والنور- مما ختمت به هذه الغزوة المفعمة بكبريات الأحداث غزوة (بني المصطلق ـ المريسيع) وهي التي بدأت نارًا تلظى وفتنًا مدمرات تتسعر وكوارث قواصم تتوالى على المجتمع المسلم ، وفيه رسول الله ﷺ يدعوهم إلى الله ، ويعلمهم دين الله وشرائعه ، ويقودهم في جهادهم ، ويملي عليهم دروس التربية السلوكية القائمة على دعائم مكارم الأخلاق ، والفضائل الإنسانية ، وانتهت بما انتهت به من النور والهدى والرحمة والسعادة التي أقر الله بها عين رسوله ﷺ في إعراسه بسيدة بني المصطلق السيدة جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق ، الذين اسلموا جميعًا بعد أن علموا أن النبي ﷺ شرفهم بمصاهرته ، واتخذ من سيدة بيوتهم زوجًا وأما للمؤمنين ، فكانت أبرك امرأة على قومها إذ اعتقهم الله تعالى بها من رق العبودية ،

وأقبل بهم يقدمهم سيدهم الحارث بن أبي ضرار أبو جويرية على الإسلام، فأسلموا وحسن إسلامهم، وكانوا من كتائب المجاهدين لنصرة دين الله ونشر رسالته.

ملامح من معالم منهج رسالة الخلود في هذه الغزوة:

لقد جمعت غزوة بني المصطلق من معالم منهج الرسالة الخالدة الخاتمة أحداثًا تشريعية ووقائع حربية، وحوادث اجتماعية، وأحكامًا فقهية، وآدابا سياسية، وسياسة قيادية كتمت أنفاس النفاق، وفضحت كيد المنافقين، وكشفت عن دسائسهم وملأت قلوبهم غيظا وحقدًا على المجتمع المسلم، وشددت من قوة تماسك هذا المجتمع الذي أشجاهم حتى ماتوا بغيظهم لم ينالوا منه ما أقامته لهم شياطينهم من سيء الطبع والمكر، وأخبث الغدر، وأكذب الفرى والبهتان وحسب هذه الغزوة فضلًا، وحسب الناظرين في أحداثها أن ينظروا فيها تفقهًا وتعمقًا يغنيانها عن التعليقات والتحليلات التي تنبه على ما في طواياها من دروس تربوية ومناهج سلوكية لأنها آيات بينات من الهدى والنور، ولأن خصائصها في أحداثها كانت سطورًا من الحكمة، كتبها الله تعالى بقلم الغيب، وجرت بها تصاريف الأقدار بما شاء الله من تمحيص للمجتمع المسلم وإظهار لفضله في تربية رسول الله ﷺ له تربية عملية تكمن عناصرها في الأحداث والوقائع، ليكون في تطبيقها رفعٌ لذكره ﷺ ونشر لهدايته في آفاق الحياة.

معاهدة الحديبية
أسبابها، وأحداثها، وأحاديثها
وآثارها في سرعة نشر الدعوة

من أجلِّ وأنبلِ جوانب منهج الرسالة الخالدة معاهدة الحديبية التي عقدها رسول الله ﷺ بينه وبين أعدائه المشركين، مع ما كان في ظاهر هذه المعاهدة من شروط تُعطي عدو المسلمين كل شيء يتصور في مصلحتهم، وتحمل ثقل هذه المعاهدة على كاهل المسلمين وحدهم، حتى مرج أمرهم، وزلزلت أقدام أكابرهم.

ولم يثبت لشدة هذه الشروط ويتقبلها كما رضيها نبي الله ﷺ إلا أرسخ المؤمنين قدمًا في ساحة الإيمان؛ أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه، حتى قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه يصف ما داخل نفسه من الشدة: لقد صالح رسول الله ﷺ أهل مكة على صلح وأعطاهم شيئًا لو أن نبي الله أمَّر عليَّ أميرًا فصنع الذي صنع نبي الله فوالله ما سمعت له ولا أطعت، وكان الذي جعل لهم: أن من لحق من الكفار بالمسلمين يردونه عليهم، ومن لحق بالكفار لم يردوه.

شدة هذه المعاهدة على جمهور الصحابة بما أدخلت عليهم من المحنة في ظاهر شروطها:

وقصة الحديبية مروية في الصحاح، وتفصيلها في كتب السيرة، ونحن نذكرها برواية البخاري رحمه الله، منبهين على

أبــرز ما فيها من أحداث تتصــل بوفاء النبي ﷺ بما عاهد عليه ولو كان فيه من الشرائط ما يبدو في ظاهر الأمر ومعارف العقول ومألوف الحياة أنه أشــد ألوان الضيم على المسلمين، ليتجلى فضــل الله تعالى على نبيه محمــد ﷺ وعلى أصحابه ومجتمعه المســلم فيمــا ادخره الله لهــم ولدينه من فتــح كان هو الطريق إلى نشــر رايــة الحق في أرجاء الأرض، وليظهــر أثر الإِيمان في تســليم أصحابه له وطاعتهم أمره ومتابعتــه في جميع ما يبلغه عن ربه عز وجل والتأسي به في أعمالهم والوفاء بعهودهم، ولو لم تسعفهم بوادر الأمور، وبواكيرها بإدراك حكمة تصرفه ﷺ بإِذن ربه حتى يغبَّ الرأي وتنجلي ســحائبه عن شــمس الهداية فــي حقيقتهــا العليا مــن آفاق الوحي وإشــراق أنــوار النبوة في سجل الرعاية الربانية.

فقــد لحــق الصحابة رضوان الله عليهم في هــذا الموقف من البلاء، وداخلهم من الشــدة ما لم يكن لهم به طاقة لولا رســوخ الإِيمان بالله ورســوله في قلوبهم، ولو نزل بالجبال الراســيات مــا نزل بهم لهاضها(٦)، ولكــن الله تعالى ثبتهم للمحنة فثبتوا وتجلت بروقها عن بشائر الفتح المبين.

رواية البخاري لحديث الحديبية هي أوثق الروايات:

روى البخــاري فــي صحيحه من طريق الزهــري عن عروة بن

(٦) المراد حطمها. يقولون هاضَ العظمَ: كسره. (المجلة)

الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه، قالا: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية -في ذي القعدة سنة ست من مهاجره ﷺ- حتى كانوا ببعض الطريق قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش -طليعةً- فخذوا ذات اليمين» فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هُمْ بقترة الجيش[٧]، فانطلق يركض نذيرًا لقريش، وسار النبي ﷺ حتى كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت راحلته العضباء -أو القصواء- والاسمان اسم لناقة واحدة كما يدل عليه ظاهر هذا الحديث، فقال الناس: حل حل يزجرونها لتنهض، فألحت فقالوا: خلأت القصواء، خلأت القصواء، فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق[٨]، ولكن حبسها حابس الفيل، والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها» ثم زجرها فوثبت، فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء يتبرضه الناس تبرضًا[٩]، فلم يلبث الناس حتى نزحوه، وشُكي إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهمًا من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه،

(٧) تدور مادة (ق.ت.ر) حول التجميع والتضييق، منه الإقتار في النفقة أي ضيقها، ومنه القتر وهو الغبار، وهو المعنى المراد في قوله (قترة الجيش). (المجلة)
(٨) خلأت: حرنت وعصت. (المجلة)
(٩) تبرض الرجل إذا تبلَّغ بالقليل من العيش. (المجلة)

فبينمـا هـم كذلك إذ جاء بديل بـن ورقاء الخزاعـي في نفر من قومه من خزاعة، وكان خزاعةُ عيبةَ نصحِ رسول الله ﷺ من أهل تهامـة، فقـال بديل: إني تركـت كعب بن لـؤي وعامر بن لؤي نزلـوا أعداد مياه الحديبية ومعهم العوذ المطافيل وهم مقاتلوك وصـادوك عن البيت، فقال رسـول الله ﷺ: «إنـا لم نجئ لقتال أحـد، ولكنا جئنـا معتمرين، وإن قريشًـا قـد نهكتهم الحرب وأضرت بهم، فإن شاءوا ماددْتُهم مدةً ويخلوا بيني وبين الناس، فإن أظهر فإن شـاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جمُّوا، وإن همْ أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي أو لينفذن الله أمره».

فقال بديل: سـأبلغهم ما تقول، فانطلق حتى أتى قريشًا، فقـال لهـم: إنا قد جئناكم مـن هذا الرجل، وسـمعناه يقول قولًا، فإن شـئتم نعرضـه عليكم فعلنا، فقال سـفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشـيء، وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سـمعته يقول، قال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قال النبي ﷺ.

مجـيء عـروة بـن مسـعود الثقفي خلفًـا لبديل وموقف الصحابة منه:

فقام عروة بن مسـعود فقال: أي قوم، ألستم بالولد؟ قالوا: بلى، قال: أولسـنا بالوالد؟ قالوا: بلـى، قال: فهل تتهموني؟

قالوا: لا، قال: ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ فلما بلَّحوا عليَّ،(١٠) جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى.

قال: فإن هذا قد عرض لكم خطة رشد، اقبلوها ودعوني آته، قالوا: ائته، فأتاه، فجعل يكلم النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ نحوًا من قوله لبديل.

فقال عروة عند ذلك: أي محمد أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى فإني والله لا أرى وجوهًا، وإني لأرى أشوابًا من الناس خليقًا أن يفروا ويدعوك(١١).

فقال أبو بكر -وكان قاعدًا خلف رسول الله ﷺ-: أنحن نفر عنه وندعه؟!

فقال عروة: من هذا؟ قالوا: أبو بكر، قال: أما والذي نفسي بيده لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك.

موقف المغيرة بن شعبة الثقفي من عروة بن مسعود وما فيه من تعظيم النبي ﷺ:

وجعل عروة يكلم النبي ﷺ فكلما تكلم أخذ بلحيته ﷺ، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي ﷺ ومعه السيف

(١٠) بلَّح الرجل انقطع من الإعياء. (المجلة)

(١١) فلان خليق بكذا أي حري به أن يفعله. (المجلة)

وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية رسول الله ﷺ ضرب يده بنصل السيف وقال له: أخِّر يدك عن لحية رسول الله ﷺ قبل ألَّا تصل إليك، فإنه لا ينبغي لمشرك أن يمسه، فقال عروة: ما أفظك وأغلظك، من هذا؟ قالوا: ابن أخيك المغيرة بن شعبة: قال عروة: أي غُدَر، ألستُ أسعى في غدرتك؟

وكان المغيرة صحب قومًا في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء».

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه قال: فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعتْ في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وَضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدُّون إليه النظر تعظيمًا له.

رجوع عروة إلى أصحابه ونعته لتعظيم أصحاب النبي له ﷺ:

فرجع عروة إلى أصحابه فقال لهم: أي قوم، والله لقد وفدتُ على الملوكِ، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت ملكًا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدًا، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، فإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ

كادوا يقتتلون على وَضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدُّون إليه النظر تعظيمًا له.

وإنـه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها، فقال رجل من بني كنانة -هو الحليس بن علقمة سيد الأحابيش- دعوني آتِـه، فقالوا: ائته، فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه قال رسول الله ﷺ: «هذا فلان وهو من قوم يعظمون البُدْن فابعثوها له»، فبُعِثتْ له واستقبله الناس يلبون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله! ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدُّوا عن البيت، فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيتُ البُدْنَ قد قُلِّدتْ وأُشْعِرَتْ، فما أرى أن يُصَدُّوا عن البيت.

رجل فاجر يخلف عروة بن مسعود في المفاوضة:

فقام رجل منهم يقال له مكرز بن حفص فقال: دعوني آته، فقالوا: ائته، فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ: «هذا مكرز وهو رجل فاجر» فجعل يكلم النبي ﷺ، فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو، فلما رآه النبي ﷺ قال: «لقد سهل لكم من أمركم».

تفاؤل النبي ﷺ بقدوم سهيل بن عمرو الذي تمت على يده المفاوضة:

ومن رواية محمد بن إسحاق أن قريشًا قالت لسهيل بن عمرو: ائت هذا الرجل فصالحه، فقال النبي ﷺ: «قد أرادت

قريـش الصلح حين بعثت هذا » فلما انتهى إلى النبي ﷺ جرى بينهمـا القـول حتى وقع بينهمـا الصلح ، فقال سـهيل : هات اكتب بيننا وبينكم كتابًا ، فدعا النبي ﷺ الكاتب ، فقال النبي ﷺ : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

محاورة سهيل في كتابة المعاهدة وتسليم النبي ﷺ له ما أراد للوصول إلى السلام:

قال سـهيل : أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو ؟ ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب .

فقال المسلمون : والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم .

فقال النبي ﷺ : « اكتب باسمك اللهم » .

ثم قال : « هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله » .

فقال سـهيل : والله لو كنا نعلم أنك رسـول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ، ولكن اكتب محمد بن عبد الله .

فقـال النبـي ﷺ : « والله إنـي لرسـول الله وإن كذبتموني ، اكتب محمد بن عبد الله » .

فقال النبي ﷺ : « على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به » .

فقال سهيل : والله لا تتحدث العرب أنا أُخِذْنا ضغطة ، ولكن ذلك من العام القابل ، فكتب .

فقال سـهيل : وعلـى أنه لا يأتيـك منا رجـل وإن كان على دينك إلا رددْتَه إلينا .

قال المسلمون: سبحان الله! كيف يُرَدُّ إلى المشركين وقد جاء مسلمًا؟!

كان قدوم أبي جندل بن سهيل من أعظم مظاهر المحنة:

فبينما هم كذلك {على وشك إبرام الهدنة} إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين.

فقال سهيل والد أبي جندل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إليَّ.

فقال النبي ﷺ: «إنا لم نقض الكتاب بعد» قال سهيل: فوالله إذن لم أصالحك على شيء أبدًا.

قال النبي ﷺ: «فأجزْه لي».

قال: ما أنا بمجيزه لك.

قال رسول الله ﷺ: «بلى فافعل».

قال سهيل: ما أنا بفاعل.

قال مكرز: بل قد أجزناه لك، فلم يلتفت أحد إلى كلامه، وشعر بذلك أبو جندل، فقال يستثير المسلمين: يا معشر المسلمين، أُرَدُّ إلى المشركين وقد جئتُ مسلمًا؟ ألا ترون ما قد لقيتُ، وكان قد عُذِّبَ عذابًا شديدًا في الله.

فقال عمر بن الخطاب: فأتيت نبي الله ﷺ فقلت: ألست نبي الله حقًا؟

قال : «بلى» .

قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟

قال : «بلى» .

قلت : فلم نُعطي الدنية في ديننا إذن ؟

قال : «إني رسول الله ولستُ أعصيه ، وهو ناصري» .

قلت : أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطَّوَّف به ؟

قال : «بلى ، فأخبرتك أنا نأتيه العام ؟» .

قلت : لا .

قال : «فإنك آتيه ومطوف به» .

رسوخُ يقينِ أبي بكر أنقذ عمر من غضبته :

قال عمر : فأتيت أبا بكر ، فقلتُ : يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقًا ؟

قال : بلى .

قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟

قال : بلى .

قلت : فلم نُعطي الدنية في ديننا إذن ؟

قال : أيها الرجل إنه لرسول الله ﷺ ، وليس يَعصي ربه ، وهو ناصره ، فاستمسِكْ بغرزه[١٢] ، فوالله إنه على الحق .

قلت : أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطَّوَّف به ؟

قال : بلى .

---

(١٢) المراد اثبت على طريقه. (المجلة)

أفأخبرك أنك تأتيه العام؟

قلت: لا.

قال: فإنك آتيه ومطوف به.

توقف أصحاب النبي ﷺ عن الإسراع إلى تنفيذ أمره ومشورة أم المؤمنين أم سلمة:

فلما فُرِغَ من قضية الكتاب، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا»، فما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة زوجه رضي الله عنها فذكر لها ما لقي من الناس.

فقالت أم سلمة: يا نبي الله أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلمْ أحدًا منهم كلمة، حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك.

فخرج فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضُهم يحلق بعضًا حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًا.

قصة أبي بصير:

ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة، فجاء أبو بصير -رجل من قريش- وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلت لنا؟ فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيدًا، فاستله الآخر، فقال: أجل والله إنه لجيد، لقد جربت به ثم جربت.

فقال أبو بصير : أرني أنظر إليه ، فأمكنه منه ، فضربه أبو بصير به حتى برد ، وفر الآخر حتى أتى المدينة ، فدخل المسجد يعدو ، فقال رسول الله ﷺ حين رآه : «لقد رأى هذا ذعرًا» .

فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال : قُتل صاحبي وإني لمقتول ، فجاء أبو بصير فقال : يا نبي الله قد والله أوفى الله ذمتك ، قد رددتني إليهم ، ثم أنجاني الله منهم ، قال النبي ﷺ : «ويل أمه مِسْعَر حرب لو كان له أحد» فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم ، فخرج حتى أتى سيف البحر .

عصابة أبي بصير:

وينفلت أبو جندل بن سهيل من أهل مكة ويلحق بأبي بصير ، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عصابة ، ما يسمعون بِعيرٍ خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم ، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده بالله والرحم لما أرسل إليهم ، فمن أتاه فهو آمن ، فأرسل النبي ﷺ إليهم ، فأنزل الله تعالى قوله :

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم

مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾

(الفتح ٢٤ - ٢٦)

ما تضمنته معاهدة الحديبية من معالم منهجية في حياة المجتمع المسلم:

في قصة هـذه المعاهدة أمور تصور -فـي جملتها- جوانب مـن أهم جوانب منهج الرسـالة الخالدة، وهـي جوانب تربوية اجتماعيـة جعلها الإسـلام خصائص مميـزة لمجتمعه من بين سائر المجتمعات البشرية في الأرض.

الأمر الأول:

هذه المعاهدة تعد أساسًـا عمليًا لتطبيق التشـريع الإسـلامي المتعلق بتحديد العلاقة فيما بين المسلمين وغيرهم من الطوائف والأمم والشعوب، وأساسًا لكل ما يتصل بفضيلة الوفاء بالعهد، مهما كانت مرارته وشدته، ومهما تكن آثاره وقسوته.

ذلـك لأن النبي ﷺ وهو رسـول الله الذي بعثه لدعوة الناس كافـة إلى الهدى وديـن الحق ليخرجهم به مـن ظلمات الكفر

والجهالة إلى نور الإيمان والعلم، هو الذي تولى بنفسه عقد هذه المعاهدة ورضي شروطها، وكان على علم بما فيها من تفاوت في موازين عدالة المعاهدات، لم يُخدَع فيها عن صواب الرأي، ولكنه أراد بتوفيق الله وتسديده أن يفتح للدعوة بابًا سلميًا تقف من ورائه خصومة تشتعل بين طرفيها حرب عصيبة لا هوادة فيها.

وهي حرب يتمثل فيها الإيمان بالحق في أصدق صوره وأرسخها يحمل رايتها الإسلام والمسلمون بقيادة رسول الله ﷺ.

وهي حرب يتمثل فيها الظلم والطغيان والجهالة في أبشع صورها، يحمل رايتها الشرك والمشركون بقيادة جبابرة الطغاة من فجرة الوثنيين، وطواغيت قريش.

والنبي ﷺ إذ يتولى بنفسه تطبيق مبدأ من أهم مبادئ السياسة التشريعية لأمته إنما يرسم بعمله طريق التأسي به لمن يتولى بعده أمرًا من أمور الحياة في مستقبل هذه الأمة.

وعمله ﷺ في تطبيق المبادئ التشريعية هو الأصل الأول في البناء التربوي للمجتمع الإسلامي، ومن ثم كان عقد هذه المعاهدة والوفاء بشروطها له الأهمية الكبرى في تأسيس التشريع الإسلامي المحدد للعلاقة بين المسلمين وغيرهم من الأمم والجماعات.

الأمر الثاني:

كان لهـذه المعاهـدة مقدمات كانت الطريـق إلى الوصول إليها، وكان لها آثار بعيدة المدى عميقة الجذور في تاريخ المد الإسلامي وانتشار الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته.

فأمـا آثارهـا فتتمثـل فـي أحـداث التاريـخ، وفـي سياسـة الفتوحات التي جاءت متتابعة بعد توقيعها.

وأمـا مقدماتهـا فلم تكن تؤذن بوقوعها علـى صورتها التي وقعت بها؛ ولذلك كان وقع المفاجأة بها قاسـيًا شـديدًا على نفوس المسـلمين، وهـذه المقدمات بعضها بعيـد، وبعضها قريب، ولكنها متصلة الحلقات متسلسلة الوقائع.

فالنبي ﷺ رسـول من عند الله، ختم الله برسـالته الرسالات الإلهية، ورسـالته هي رسالة الإسـلام، والإسلام ثورة إصلاحية نيط بهـا تغيير جذري في بناء المجتمع البشـري، وإصلاح ما فسـد في أممه وشـعوبه فكريًا وسياسـيًا واجتماعيًا وروحيًا، وكان المجتمـع الـذي نبتت فيه هذه الأمة الإسـلامية مجتمعًا مريضًـا، أسـقمه المـرض إلـى حـد جعـل كيانـه الاجتماعي والروحي كيانًا متهاويًا لا يتماسـك في عقيدة يسندها عقل أو منطق، ولا يتماسـك في نظام اجتماعي يسـنده علم يهدي إلى حق وخير.

المجتمعات البشرية يوم عقد هذه المعاهدة:

ويحيط بهذا المجتمع المتهافت في بنائه الاجتماعي مجتمعات بشرية ممزقة الأوصال، تعيش على أصداء باهتة لتاريخ ظلوم قاتم الآفاق، يحمل رايته السوداء دولتان أو أمتان كانتا في عهد إشراق شمس الدعوة الإسلامية شبحًا لبناء إنساني متهدم، ينخر فيه سوس الفناء، وتنسج له الحياة أكفان الزوال.

ففي الشرق كانت بقايا دولة الفرس تتنفس لاهثة من طول ما عانت من أمراض الاضطرابات الداخلية والخلافات المذهبية وآثار الحروب الخارجية مع منافسيهم الرومان.

وفي الغرب كانت دولة الرومان تطفو على سطح الحياة جسدًا عريض الأكناف لا روح فيه، أنهكته المظالم الإقطاعية والمجادلات المذهبية والحروب الخارجية مع الفرس.

وبين هاتين الدولتين أو الأمتين شراذم إنسانية المظهر متناثرة هنا وهناك تناثر الدقل أو الحصى على الأرض، تعيش كما تعيش الأنعام في غياهب البراري وغياض الغابات، إن أدركتها يد إحدى الدولتين اعتصرتها إن توهمت فيها شيئًا من عصارة، حتى تتركها عُودًا ناشفًا لا تطعمه إلا نيران الجهالة والهمل.

وفي هذا الجو القاتم أشرقت شمس الهداية من أفق الجزيرة العربية ببعثة محمد بن عبد الله ﷺ رسولًا إلى الناس كافة

بشــريعة هي خاتمة الشــرائع الإلهية، فدعــا أول ما دعا قومه، استجابة لأمر الله له في قوله تعالى:

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾(الشعراء: ٢١٤)

فدعاهــم إلــى توحيد الله وترك عبادة الأوثــان، وحذرهم من عقابه، وأنذرهم بطشــه، فتولــوا عنه مدبرين، وما آمن به منهم إلا قليــل، فصبر عليهم وصابرهم، وتحمل منهم أشــد الأذى، ولــم ينتهــوا حتى تآمــروا على قتلــه، ولما لم يجد ســبيلًا إلى قلوبهم عرض نفســه ودعوته على غيرهم من القبائل والبطون، يذهــب إليهم في مواطنهم ومحافلهم أو يســتقبل الوافدين من قبائل العرب وبطونها إلى بلده ليعظموا بيت ربهم بما تعودوه فــي جاهليتهم من مناســك وشــعائر، وأقبل عليــه أبناء يثرب أوســهم وخزرجهــم، وجمــع الله بــه كلمتهم بعد فرقــة وقتال بينهــم، وبايعــوه على أن ينصروه نصرهم لأنفســهم، ويحموا دعوتــه حمايتهــم لأولادهــم وأعراضهــم إن أوى إليهم وهاجر إلى بلدهم، فبايعهم وأشــار على أصحابه الذين أوذوا في سبيله وســبيل دعوته بالهجرة إلى إخوانهم أنصار الله وأنصار رســوله ودينه، فهاجر منهم من اســتطاع أن يهاجر، واتخذوا من يثرب مدينتهم، وفيها دوَّى صوتُ الدعوة حتى عمَّ أرجاءها، فلم يبق بيــت مــن بيوتها إلا دخله الإسـلام، وذعرت مكــة، بل رعبت وركبت ظهر الشــيطان، فجرى بها إلى أسوأ تدبير، وأعلم الله

نبيه ﷺ بما بيتت من كيد ومكر، فخرج إلى المدينة مهاجرًا يصاحبه صِدِّيقُه أول المؤمنين وأفضل أتباع الأنبياء والمرسلين أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه.

فاستقر رسول الله ﷺ بالمدينة، وأقبل عليه أهلها يؤمنون بدعوته إقبال الفصائل على حُفَّل أمهاتها للرضاع.

القرآن الحكيم يجعل اليهود والمنافقين في قرن واحد:

وكانت المدينة مستوطنًا لجاليات من اليهود والعرب المتهودين يملكون الثروة فيها، فتحرك فيهم عرق الحسد، فنافقوا، واستنفقوا قومًا ممن شاركهم في رذيلة الحسد، وتعاونوا وإياهم على الإثم والعدوان، وهموا بما لم ينالوا، واليهود والمنافقون جبناء لا يجرُءون على الوقوف نهارًا جهارًا أمام الدعوة الجديدة وجندها وأنصارها، فهم كما وصفهم الله تعالى بوصف إخوانهم في قوله:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١٢) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا

إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾

(الحشر: ١١ - ١٤)

وفي قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾

(المنافقون: ٤)

وفي قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ (البقرة: ٢٠٤- ٢٠٦)

هذه الآية على خلاف ما قيل في سبب نزولها ظاهرة الورود في المنافقين واليهود.

رأى النبي ﷺ بتسديد الله أن يهادن اليهود ويفك عرى قوتهم، ويذل غرورهم، ويكبت حسدهم، فكتب كتاب المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وفيه أدخل اليهودَ تابعين لبيوت الأنصار، يجعل كل فريق من اليهود تابعًا لفريق من

الأنصـار، وأمَّن في هـذا الكتاب اليهودَ علـى دينهم وأموالهم وأعراضهم ما داموا قائمين على حفظ العهد ليتفرغ ﷺ لتبليغ دعوته ونشر رسالته ويؤمِّن طُهر مجتمعه.

أول حركة إيجابية ينهض إليها المجتمع المسلم لدفع الظلم:

وكانـت المدينـة طريق مكة إلى الشـام فـي تجارتها، وفي زعمـاء أهـل مكة عنجهيـة حاسـدة، ولهم قلوب مـن الصخر منحوتة حاسدة حاقدة، ونفوس للحق والهدى مبغضة، وعقول بـالله كافرة، أرمضهـا أن يفلت المسـلمون بدعوتهم إلى قلعة منيعـة تقـف في طريـق تجارتهم، وتهـدم طغيانهـم، يحميها أنصارها من الأوس والخـزرج وهم -على ما تعلم قريش- أبناء السيف والقنا وأحلاس الحرب والوغى.

وقريـش في مكة تعلم أنها اسـتولت على أموال المهاجرين إلى المدينة ظلمًا وعدوانًا وبغيًا وعتوًا، وأخرجتهم من ديارهم بغيـر حق، فهل تنـام قريرة العين، وتمـرُّ بتجارتها على هؤلاء الذين وترتهم بالأمس آمنةً مطمئنةً؟

فلتجـرب، ليمـض عاهلهـا أبـو سـفيان بـن حـرب قائدًا لقافلتهم، ومضى يسوق قافلته إلى الشام، وفيها باع واشترى، وربـح واسـتربح، وعاد إلـى قومه يحمـل إليهم غرائـر المال ومكاسب التجارة.

ولعل في هذا المال الذي اتجرت به قافلة قريش مالًا من أموال المسلمين المهاجرين، وإلا يكن عينَه فهو عوضه، وللمظلوم أخْذُ حقه من ظالمه، وقد أذن الله جل ذكره لهم بالقتال لدفع الظلم وإقامة دعائم الحق، فقال:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾

(الحج: ٣٩، ٤٠)

وقربت القافلة من المدينة، وتسامع أهلها من الأنصار والمهاجرين بقدومها، فحركتهم حمية الحق، وحمية الدفاع عن كرامتهم، فهؤلاء أعداؤهم وهم أعداء الحق لم يكتفوا ببغيهم عليهم حيث كانوا بين أظهرهم، بل أخرجوهم من ديارهم وأموالهم، وتجاوزوا كل بغي وعتو، فداسوا بقافلتهم الباغية طريق مهاجرهم علانية. لا، لا، لن يكون لأهل البغي والعدوان الظالمين مرورٌ بقافلتهم، وفي أنصار الله عين تطرف.

وخرج بعض المسلمين من المهاجرين وإخوانهم الأنصار يعترضون طريق القافلة إلى مكة، فعلم بهم غطريفها أبو سفيان بن حرب، فعدل عن الطريق وساحَلَ بقافلته، وكان قد أنذر أهل مكة فخرجوا يجرون أذيال الغرور والكبرياء، يسوقهم البأو والغطرسة إلى حتوفهم، وأرسل إليهم أبو سفيان

يخبرهم أنه قد نجا ونجت معه القافلة، فلم ينهَهُم ذلك عن المضي في طريق البغي.

شاور النبي ﷺ أصحابه، فأشار جمهورهم بملاقاة أعداء الله على كثرتهم وعظيم استعدادهم، وقلة المسلمين وضعف ظهرهم وعدتهم، وكانت وقعة بدر الكبرى كما تحدثنا عنها، وفيها انتصر الحق على الباطل، وظفر الإيمان بالشرك، وهُزم الظلم والبغي هزيمةً ساحقةً، وكانت هذه الواقعة أول وقعة واجه فيها المسلمون -وهم قلة في العدد، وضعف في العدة- المشركين بقوتهم الباغية، وكان سلاح الإيمان بالحق هو الفيصل في هذه المواجهة.

عادت فلول مكة خائبة خاسرة بعد عنجهية الكبرياء وحمية الجاهلية، مقصوصة الأجنحة، ثم توالت الوقائع وظهر نجيث اليهود وخبث النفاق، واشرأبت أعناقهم خشية أن تعلو كلمة الإسلام، فنقضوا العهود والموادعات التي عقدها رسول الله ﷺ بينهم وبين المؤمنين، وتجمع أحزاب الكفر والضلال من اليهود والمشركين على شراذم المنافقين، وتعاهدوا على الغدر والفجور، وكانت وقائع وأحداث، من أهمها غزوة الأحزاب التي تألب فيها المشركون من القبائل التي لم يدخل الإسلام قلوبها، وظاهرهم اليهود والمنافقون، فهزمهم الله، ونصر جنده. وأعلى كلمته.

الأمر الثالث:

رأى رسـول الله ﷺ بعـد انتصاراتـه المتواليـة أن يمـد يـد المسـالمة والرفـق إلـى مكة، وأن يـوادع أهلهـا موادعة من لا يرغـب في الحـرب ولا يسـتهدف العداوة والقتـال، بل يدعو إلى الأمن والسـلام، وخرج إلى العمرة بمن معه من المهاجرين والأنصـار، عامدًا إلـى البيت الحـرام زائرًا وسـاق معه الهدي ليأمـن النـاس، ويعلموا أنه خـرج معظمًا للبيـت متعبدًا لربه، ولكن غطرسـة المشـركين الباغية وعجرفتهم الطاغية أبيا إلا عنـادًا فاجرًا، وعقدوا الخناصر على أن يصدوا رسـول الله ﷺ وأصحابه عن تعظيمهم بيت ربهم في رحلتهم المسالمة.

تـواردت الأخبار على رسـول الله ﷺ أن أهـل مكة تجمعوا وتعاهـدوا على أن يمنعوه من دخول مكة، فقال كلمته الوادعة الموادعة الحكيمة المحكمة: «يا ويح قريش أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلَّوْا بيني وبين سـائر العرب؟ فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره أو تنفرد هذه السالفة».

فهـل رأى النـاسُ إنصافًـا ومعدلة مثـل ما في هـذه الكلمة الجامعة؟

وهل سمع الناس بموادعة ومسالمة مثل هذه المسالمة الوادعة؟

وهل عرف الناس طريقًا لفتح باب الحرية للعدو يملكه أمر خصمه مثل ما عرضت له هذه الكلمة الواثقة الموثقة؟

وهل ذكر التاريخ عزيمة مصممة على المضي قدمًا في أمر بدأ متواريًا ثم استعلن شامخًا كما بدأ أمر الإسلام مثل ما في هذه الكلمة الحازمة الصارمة؟

بلى، كانت مرة في التاريخ، نفس تاريخ هذه الدعوة فقط، يوم أن انفرد رسول الله ﷺ في جانب والأرض كلها ومَن عليها في جانب آخر، حتى عمُّه الذي كان يحنو عليه ويحوطه، وبدا أنه خضع لبعض الأمر مع قومه، فقال له النبي ﷺ أخت هذه الكلمة: «والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

ثم عدل رسول الله ﷺ إمعانًا في إظهار رغبته في السلام عن طريق مواجهة قريش ليعلم الناس حقيقة مقصده من الموادعة وتأمين الناس، حتى إذا بلغ مكانًا قريبًا من قرية الحديبية بركت راحلته، فجعل الناس ينهضونها فألحت ولم تنهض، فقالوا: خلأت القصواء خلأت القصواء، أي حرنت، فقال النبي ﷺ «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن

حبسـها -أي عن مكـة- حابس الفيل، والذي نفسي بيده، لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها» ثم زجرها فوثبت به حتى نـزل بأقصى قرية الحديبية، انتظارًا لما تنفرج عنه أسرار الغيب، وما عسى أن يكون من قريش وقد ظهر لها ظهورًا بينًا أن رسول الله ﷺ وأصحابه لم يقدموا إلى مكة إلا من بعد أن مدوا حبل السلام والموادعة، وأنهم لم يأتوا إلا لزيارة البيت الحرام وتعظيمه.

الأمر الرابع:

كان لهذه السياسة الحكيمة الحازمة المسالمة التي ساس بها رسول الله ﷺ الموقف أثرها في توجيه الأمور إلى نهايتها التي قصد إليها رسول الله ﷺ من هذه السياسة التي تحمَّل فيها على نفسه ومجتمعه المسلم، وامتحن فيها أصحابه رضي الله عنهم أشد الامتحان، فصبروا للمحنة بعد أن مُحِّصُوا تمحيصًا أخلص أنفسهم للتأسي والتسليم لما يراه رسول الله ﷺ ولو خفيت عليهم حكمته وأسراره.

ولما اطمأن رسول الله ﷺ في منزله الذي نزله من الحديبية أتاه بديل بن ورقاء الخزاعي في رجال من قومه، وخزاعة -مسلمها ومشركها- كانت موضع نصح رسول الله ﷺ مأمونة على سره لا تخفي عليه شيئًا تراه بمكة، فسأل بديل ورفاقه النبي ﷺ ما الذي جاء به؟ فقال: «إنه لم يأت يريد حربًا،

وإنما جاء زائرًا للبيـت ومعظمًا لحرمته» فرجع بديل ومن معه مـن قومه إلـى قريش وأبلغوهـا مقالة رسـول الله ﷺ وتتابعت الرسـل منهم إلى رسـول الله ﷺ فكان يجيب كل رسـول بما أجاب به بديلًا، وكان من أمتع هذه المقاولات مساءلة عروة بن مسـعود الثقفي وما احتف بها من أمـور لها مكانها الخاص في تصويـر إجلال أصحاب رسـول الله ﷺ وتعظيمهم وحبهم له، ومتابعتهم له ﷺ في كل ما يأمر به.

ولكـن الشـرك كان لا يـزال يفكـر بعقلية الوثنيـة التي لم تسـتطع أن ترتفـع عن حمـأة الكيد الأحمـق، ففكرت قريش بهـذه العقليـة وقـدرت، فَكَّـرت في الغـدر فبعثت خمسـين رجـلًا ليتحينوا غِرَّةً من المؤمنيـن فيفتكوا بمن ينالونه منهم، وكان هـؤلاء الخمسـون بُلْـهَ التفكيـر والتقديـر، فرمـوا في جمـوع الصحابة بالحجارة والنبل، وما هـي إلا هبة من بهاليل الإيمان[١٣]، حتى أخذوهم سوقًا إلى رسول الله ﷺ فمَنَّ عليهم وعفـا عنهم، وخلَّى سـبيلهم تأكيدًا لمقاصـده النبيلة ﷺ في السلام والمسالمة.

الأمر الخامس:

لم يكتف رسـول الله ﷺ بما كان بينه وبين رسل قريش من مقاولات كانت واضحة أشـد الوضوح فـي أنه ﷺ لم يكن من

(١٣) البُهلول: السيد الجامع لصفات الخير. (المجلة)

قصده في قدومه إلا التعبد لربه وزيارة بيته المحرم وتعظيم حرمته، بل تقدم إلى صادِّيه أعداء الحق، فأرسل إليهم من يبلغهم عنه ما أجاب به رسلهم من المسالمة والموادعة وترك الفرصة لهم، إزالة لكل شك، وتبديدًا لكل ارتياب، فعسى ألا يكون رسلهم قد أدوا ما حملوا من أمانة الرسالة إليهم بتفصيلها ووضوحها، فقد كانوا يجبهون الرسل، ويلقون منهم عنتًا وتسفيهًا مما قد يمنع من كمال الإبلاغ، فأراد رسول الله ﷺ أن يقطع دابر الشك ويعذر إليهم حتى لا تبقى لهم حجة عليه وعلى أصحابه.

غدر قريش برسول رسول الله ﷺ:

فقد روي أن رسول الله ﷺ دعا خراش بن أمية الخزاعي فبعثه إلى قريش، وحمَله على بعير له ليبلِّغ أشرافهم عنه ما جاء له، فسفهت قريش على رسول رسول الله ﷺ وعقروا به جمل رسول الله ﷺ وأرادوا قتله، فمنعه قومه وحلفاؤهم الأحابيش وخلوا سبيله، وعَدَا إلى رسول الله ﷺ فأخبره بما صنعت قريش معه.

لم يعَجِّل رسول الله ﷺ على قريش فيجازيها بما فعلت من الغدر برسوله إليها، ولكنه طاولها وصابرها، رجاء أن تثوب إلى مراشدها، فدعا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليبعثه إلى مكة، فيبلغ عنه أشرافها ما جاء له، فقال عمر رضي الله عنه:

يا رسول الله إني أخاف قريشًا على نفسي بمكة، وما بمكة من بني عدي بن كعب -قوم عمر- أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها، وغلظتي عليها، ولكن أدلُّك على رجل أعز بها مني عثمان بن عفان، وكان هذا الرأي من عمر سديدًا موفقًا لما يقصد إليه رسول الله ﷺ من المسالمة والموادعة؛ لأن عمر لو ذهب إلى قريش وهو معها كما وصف نفسه، لأسرعت إليه تمد يدها بالسوء، ويكون ذلك سببًا في اشتعال نار الحرب، وهذا ما كان رسول الله ﷺ يحاول تجنبه والابتعاد عنه، فكان عدم بعث عمر من حسن السياسة الموفقة الموافقة لمقاصد رسول الله ﷺ.

ودعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان رضي الله عنه، وبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه لم يأت إلا زائرًا لهذا البيت ومعظمًا لحرمته.

خرج عثمان في سفارته إلى مكة، وحقق الله ظن عمر فيه، فلم يكد عثمان يقرب من مكة حتى لقيه قبل أن يدخلها أبان بن سعيد بن العاص، فجعله بين يديه، وعرف منه ما جاء به سفيرًا فأجاره وأعلن هذا الجوار على ملأ قريش، فلم ترتفع بالإنكار عليه رأسٌ لعزته في قومه وعزة قومه في قريش.

بلَّغ عثمان رضي الله عنه رسالة رسول الله ﷺ إلى أبي سفيان وأشراف مكة كما أمره رسول الله ﷺ، فأرادوا أن يتملقوا عثمان

ويصرفوه عن مقصده، فقالوا له: إن شئت أن تطوف بالبيت فافعل، ولكن عثمان أحد السابقين الأولين، وأحد أصحاب الهجرتين، الأثير بالصهر في مطلع البعثة قبل أن يشرف أحد قبله بهذا الصهر العلي المستعلي، عثمان صاحب الفضائل والفواضل على الإسلام والمسلمين، أبَى لصدق إيمانه على قريش هذا الملق الوضيع، ورد عليهم بالكلمة الراسخة في صدق الإيمان وقال لهم: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ.

بيعة الرضوان:

وعادت قريش إلى عنجهيتها فاحتبست عثمان عندها ولم تطلق له حرية الرجوع إلى رسول الله ﷺ ليبلغه عنها جواب رسالته، ولما طال احتباس عثمان تطايرت الإشاعات بأن عثمان قد قتلته قريش، فثارت لهذه الشائعات عزائم الإيمان، فقال رسول الله ﷺ: «لا نبرح حتى نناجز القوم».

ودعا رسول الله ﷺ أصحابه إلى البيعة فبايعوه بيعة الرضوان تحت الشجرة، وضرب رسول الله ﷺ بإحدى يديه على الأخرى وقال: «هذه عن عثمان» وتسامعت قريش بعزيمة رسول الله ﷺ على مناجزتهم، وبيعة أصحابه له على ذلك، فرُعبت رعبًا شديدًا ودارت بها أرضها تحت أقدامها فرقًا وفزعًا، فأطلقت عثمان رضي الله عنه، وأرسلت سهيلًا تطلب إليه مصالحة رسول الله ﷺ.

وفـي بيعة الرضوان يقول الله تعالى تنويهًا بمقام رسـول الله ﷺ ومكانته من الله تعالى، وتشريفًا لأصحابه الذين بايعوه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ (الفتح: ١٠)

ويقول جل ثناؤه في إظهار فضل الذين بايعوا رسول الله ﷺ هذه البيعة المباركة وحفاوته بهم:

﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾

(الفتح: ١٨)

الأمر السادس:

انتهـى سـهيل إلـى رسـول الله ﷺ فتكلـم فأطـال الكلام وتراجعا في الحديث، ثم جرى بين رسول الله ﷺ وبينه الصلح على شروطٍ تحمَّل فيها رسول الله ﷺ على نفسه أمرًا عظيمًا، وناءت بثقلها نفوس أصحابه حتى وثب عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجاء إلى رسـول الله ﷺ يسـائله في شأن هذه الشروط القاسـية وكيف يقبلها المسـلمون وهم علـى الحق وأعداؤهم علـى الباطـل، فقال له رسـول الله ﷺ: «إني رسـول الله، وهو ناصـري، ولسـت أعصيـه» قال عمر: أولسـتَ كنـتَ تحدثنا

أنَّا سنأتي البيت ونطَّوَّف به؟ فقال له رسول الله ﷺ : «بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه العام؟» قال عمر: لا، فقال النبي ﷺ: «فإنك آتيه ومطوف به».

هذا الموقف الشديد الذي عبر فيه عمر عن جوه النفسي بقوله: ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ، يصور أصدق تصوير ما دخل على المسلمين من الغم والحيرة، بيد أن الموقف كان أقسى مما تصوره الكلمات، فقد كان فوق طاقة الاحتمال البشري، لم يثبت له بعد رسول الله ﷺ الذي كان على علم من ربه وكُشفت له حجب الأسرار عن عواقبه غير الصديق أبي بكر رضي الله عنه.

وثباتُ أبي بكر الذي انفرد به في مضايق هذا الموقف إنما كان بقدر رسوخه في الإيمان رسوخًا كان يستمده من آفاق شمس النبوة الذي جعله الله على نور قلبها، وله منها الكثير من خصائص آثارها الفطرية، ومن يقينه الذي وقر في قلبه بصورة لا يلحقه فيها نقص الشبهات، ولا يزيدها كشف الحجاب.

ولهذا ذهب إليه عمر يتلمس من يقينه وإيمانه ثلج التثبيت؛ لأنه سيد الراسخين بعد النبي ﷺ.

قال عمر: فأتيت أبا بكر فقلت له كما قلت لرسول الله ﷺ، فردَّ عليه أبو بكر بما ردَّ به علي رسول الله ﷺ سواء، لم يخرم منه حرفًا، ولا غيَّر كلمةً، غير أنه زاده في التثبيت فقال

له : فاستمسك بغرزه حتى تموت ، فوالله إنه لعلى الحق .

الأمر السابع:

هذه المعاهدة تتألف من سبعة شروط :

الشـــرط الأول : وضع الحرب عن الناس عشـــر سنين ، يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض .

الشـــرط الثاني : من أتى رســـول الله ﷺ من قريش بغير إذن وليه رده عليهم .

الشـــرط الثالث : من أتى قريشًـــا ممن مع رســـول الله ﷺ لم يردوه عليه .

الشـــرط الرابع : أنَّ بيننا -أي المؤمنين والمشركين- عيبةً مكفوفـــةً ، أي صدرًا نقيًا من الغل والخـــداع والغش مطويًا على الوفاء والأمانة .

الشرط الخامس : أنه لا إسلال ولا إغلال ، أي لا سَلَّ للسيوف للقتال ، ولا خيانة وسوء تدبير بالمكر والكيد .

الشـــرط الســـادس : من أحبَّ أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه .

الشـــرط الســـابع : أن يرجع محمد عن قريـــش عامَه هذا فلا يدخـــل مكة ولا يطـــوف بالبيـــت ، وإذا كان عـــام قابل خرجت قريـــش عن مكة وأخلتهـــا فدخلها محمـــد ﷺ بأصحابه ، فأقام بها ثلاثًا ليس معه إلا سلاح الراكب ، السيوف في قربها .

لمحات من زاد المعاد في أسرار هذه المعاهدة:

قال ابن القيم في زاد المعاد : مِن الحِكَم التي تضمنتها هذه الهدنــة أنها كانت مقدمــة بين يدي الفتح الأعظم الذي أعزَّ الله به رسوله وجنده، ودخل الناس به في دين الله أفواجا .

ومنهـا أن هـذه الهدنة كانت أعظم الفتـوح ، فإن الناس أمن بعضهم بعضًا ، واختلط المسلمون بالكفار ، ونادوهم بالدعوة وأسـمعوهم القـرآن ، وناظروهـم على الإسـلام جهـرة آمنين ، وظهر من كان مختفيًا بالإسـلام ، ودخل فيه في مدة الهدنة من شاء الله أن يدخل ؛ ولهذا سماه الله فتحا مبينا .

وهـذا يدل على أن خير شـروط هذه المعاهـدة وأبركها هو الشرط الأول شرط وضع الحرب بين المسلمين والمشركين ؛ لأنــه أمَّن النـاس ، وفتح أمام دعوة الإسـلام الطريق إلى القلوب والآفاق ، فأسمعها المسـلمون لمن لم يكن قد سمعها وبينت حججها بيانًا ساطعًا لمن لم يكن قد تبينها ، وقرئ القرآن على من لم يكن قد سمعه ، وهم قوم لماحون لمواقع نجوم الفصاحة ومنازل البلاغة من آياته ، دراكون لحكمه وأسراره .

وبذلـك كانت هذه الهدنة هي الفتح المبين الذي بشـر الله به عباده المؤمنين ، وامتن به على رسـوله الأمين ﷺ ، وهنَّأه به أمين الوحي جبريل والملائكة وصالحو المؤمنين .

وكان أشـد شروطها وأقسـاها فيما بدا للناس ، واشتد الأمر

فيـه على جمهور الصحابة رضوان الله عليهم- شـرطَيْها الثاني والثالـث اللذَيْـن قضيـا بردٍّ مـن أتى رسـول الله ﷺ من قريش إليهـم ولـو كـان على دينـه، ومـن أتـى قريشًـا ممـن مع رسول الله ﷺ لم يردوه عليه.

هذان الشـرطان هما اللذان أدخلا على المسـلمين من الهم والغـم ما أذهل الألبـاب، وأظهـر أكابرُهم منهمـا الامتعاض، وعجب متحيرًا كثير منهم من قبول هذين الشـرطين، فقالوا: سـبحان الله كيف يرد على المشـركين من جاءنا مسـلمًا، ولا يردون علينا من ذهب إليهم مسـلمًا؟ وكان أشد الممتعضين: عمر بن الخطاب، وأسـيد بن حضير، وسعد بن عبادة، وسهل بن حنيف، ولكن رسـول الله ﷺ قَبِل ذلـك وعاهد القوم عليه لما كان ينظر إليه من وراء سـتر الغيـب، وقال لأصحابه: «من ذهب منا إليهم أبعده الله، ومن جاء منهم إلينا فسـيجعل الله له فرجًا ومخرجًا».

وقـد عجل الله امتحان المسـلمين وابتلاءهم فـي تحقيق الوفاء بهذين الشرطين الصارمين ليمحصهم، ويعدهم إعدادًا كاملًا لحمل أمانة الإسـلام، ويظهـر لأعدائهم فضل الإسـلام في احتـرام الوفاء بالعهد في خلائقهم التي خلَّقتهم بها دعوتُه الهاديةُ الراشدة، ويبين للنـاس مـا حبا به نبيه محمدًا ﷺ من الصبـر على البلاء، وتعظيمه أمر الوفاء بما عاهد عليه مهما عظمت شدته واشتدت قسوته.

موقف سهيل من ابنه أبي جندل الذي عجل به ابتلاء المسلمين:

فبينما هم كذلك -ولمَّا يكتبوا العهد وشروطه، وإنما كان الأمر لا يزال مفاوضة كلامية انتهى أمرها إلى الاتفاق على شروط العهد- إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، ولم يكد يراه أبوه سهيل وكان هو صاحب سفارة قريش ومتكلمها في العهد وشروطه، ونائبها في عقد المصالحة حتى ضرب بوجهه وأخذ بتلابيبه وقال: ذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن ترده إليَّ، فقال النبي ﷺ: «إنا لم نقض الكتاب بعد» فأبى سهيل إلا شرطه، وقال: فوالله إذن لم أصالحك على شيء أبدًا، فوافق النبي ﷺ على أن الشرط لازم واجب الوفاء وإن لم يقض الكتاب، ولكنه طلب من سهيل أن يترك له ابنه أبا جندل استثناء من الشرط، فأبى سهيل أشد الإباء، فصرخ أبو جندل لما علم أنه متروك لأبيه يرده إلى المشركين، ونادى في المسلمين يثير فيهم حمية الإسلام وأريحية الإيمان: أي معشر المسلمين، أُرَدُّ إلى المشركين وقد جئتُ مسلمًا؟ ألا ترون ما لقيتُ؟ وكان قد عُذِّبَ عذابًا شديدًا في الله.

آيـة من آيـات السياسـة النبوية في تصبير أبي جندل على المحنة وتبشيره:

فقال له رسـول الله ﷺ: «يا أبا جندل اصبرْ واحتسب فإنَّا لا نغـدر، وإن الله جاعل لك فرجًـا ومخرجًا، إنَّا قد عقدنا بيننا وبيـن القوم صلحًـا، وأعطيناهم على ذلـك وأعطونا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم».

وفـي هـذه الكلمات النبوية المشـرقة العظيمـة دلالة ليس فوقها دلالة على مقدار حرص رسـول الله ﷺ وتمسكه بفضيلة الوفاء بالعهد مهما كانت نتائجه وعواقبه فيما يبدو للناس فهو ﷺ يرى أحد المسـلمين الذين عذبوا عذابًا شـديدًا ليفتن عن دينه يرمي بنفسه بين أظهر المسلمين وهو في قيوده وأغلاله، وأبو هذا المسلم المضطهد هو الذي يعقد الصلح مع النبي ﷺ فيستجيزه رسـول الله منه فيأبى ويهدد بالتحلل من المعاهدة، فلم يزد رسـول الله ﷺ على أن أوصى المسلم المعذب بالصبر والاحتساب، فيصرخ هذا المسلم في إخوانه المسلمين يستدر عطفهم ويثير حماستهم بعرض حاله عليهم وهم يرونه ويرون ما فيه وما لقيه من المشـركين، وما ينتظـر أن يلقاه منهم بعد رده إليهـم، ويخشـى رسـول الله ﷺ أن يحـرك هـذا الموقف كوامـن النفـوس في المسـلمين وتأخذهـم الحميـة الإيمانية فيصنعون مـا يعوق عقد المعاهدة ويحسـم الأمر بقوله: «فإنا

لا نغدر» ويبشر أبا جندل ليثبته على الإيمان بأن الله جاعل له فرجًا ومخرجًا، ثم يقول ﷺ كلمة جامعة لتقر في أسماع كافة المسلمين وتعيها قلوبهم: «إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحًا وأعطيناهم وأعطونا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم» حتى يكون كل مسلم شهد أو غاب على بينة من أمر منهج رسالة النور والخلود وتمسك الإسلام به، فلا تثيره عاطفة ولا تميل به حمية.

بركة الشرط السادس من شروط المعاهدة:

وكان شرط هذه المعاهدة السادس الذي تضمن حرية الاختيار للقبائل في الانضمام إلى أحد الفريقين المتصالحين - فاتحة خير، وهو الذي عجل الفتح المبين، فقد تواثبت خزاعة -وكانت قديمًا مع بني هاشم في حلفهم وكانت موضع ثقة ونصح لرسول الله ﷺ- وقالوا: نحن في عقد محمد ﷺ، وتواثبت بنو بكر، وقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم، وكان بين الحيين، خزاعة وبكر إحنٌ وضغائن جاهلية خلَّفتْ بينهم تِرَاتٍ ودماءً[١٤]، يتحينون لإثارتها الفرص، فلما جاء الإسلام حجز بينهم، وظلوا على ما بينهم من الإحن حتى تم عقد صلح الهدنة، فانتهزها البكريون غدرًا وخيانة، وعدوا

(١٤) التِرات: المَقَاتل. من قولهم وتره يتِره تِرةً، أي قتل حميمه فأفرده منه. (المجلة)

علـى خزاعة حلفاء رسـول الله ﷺ وبيتوهم فـي ديارهم وعلى مياههم وهم غـارون آمنون، ورفدت قريـش بني بكر حلفاءها بالسـلاح والرجـال مسـتخفين، وظـاهروهـم علـى حلفاء رسول الله ﷺ الداخلين في عقده وعهده، فنقضت قريش بذلك عهدهـا مع رسـول الله ﷺ الذي واثقته به علـى أنَّ بينهم وبين المسـلمين عيبة مكفوفة وصدورًا سـليمة من الغش والخداع، نقية من الغدر والخيانة، وأنه لا إسلال ولا إغلال، وهم قد سلوا السيوف وقتلوا وخانوا وغدروا.

وخـرج عمرو بن سـالم الخزاعـي في أربعين مـن قومه إلى المدينـة، يسـتنصر رسـول الله ﷺ ويسـتنجزه الوفـاء بعهده لحلفائـه الذيـن آثـروه ودخلوا في عقـده وعهده، وقـد عدَتْ عليهـم بنـو بكـر حلفاء قريـش، ورفدتهـم قريـش وأعانتهم بالسلاح والرجال.

ولما انتهى عمرو بن سالم الخزاعي إلى رسول الله ﷺ وهو جالس في مسـجده بين أظهر أصحابه أنشـده أبياتًا من الشـعر يسـتصرخه بهـا، وقـد قدمناها منسـوبة إلى بديل بـن ورقاء، وتقـول الرواية السـابقة إن الـذي قدم على رسـول الله ﷺ في أربعين من قومه يسـتنصره على قريـش وبني بكر هو بديل بن ورقاء، وهو الذي أنشد هذا الشعر.

فقـال رسـول الله ﷺ: «نصـرتَ يـا عمـرو بـن سـالم»،

وتسـامعت قريش برحلة الخزاعيين إلى المدينة يسـتصرخون رسـول الله ﷺ ، فرعبت رعبًا شـديدًا وأخذها المقيم المقعد ، وندمـت على ما فعلت ، وسـقط في يدها فأرسـلت زعيمها أبا سفيان ليشد عقد الهدنة ويستزيد في مدتها .

موقف ذليل مخذول لأبي سفيان بن حرب:

فلمـا قدم أبو سـفيان المدينة دخل على ابنتـه أم المؤمنين السـيدة أم حبيبـة رضـي الله عنها ، فذهب ليجلـس على فراش رسـول الله ﷺ فطوتـه عنه ، فقال لها : يا بنية مـا أدري أرغبتِ بي عـن هذا الفراش ، أم رغبتِ به عنـي ؟ قالت : بـل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت مشرك ، قال : والله لقد أصابكِ بعدي شر .

موقف من مواقف الإيمان وإخلاص اليقين من أم المؤمنين السيدة أم حبيبة مع أبيها أبي سفيان سيد البطحاء:

وهنـا إشـراقة لامعـة بالمنهج الإسـلامي ولكنهـا من لون عجيب جدًا ، فالسـيدة الجليلـة أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سـفيان زعيم قريش وسـيد بطحـاء مكة ، يدخـل عليها أبوها بعد طول عهـدٍ بفراقها ، ويجيء ليجلس علـى فراش في بيتها فتطويـه عنه ، فيتسـاءل فـي عنجهيـة الكبريـاء المتغطرس ، هـل طوي عنـه هذا الفراش لأنه لا يليق بكبرياء سـيد البطحاء وزعيم قريش ؟ أو طوي هذا الفراش تعظمًا به أن يدنسـه رجس الشـرك في زعامة البطحاء ؟ فتجيبه ابنته الوفية لدينها ولنبيها

ورسالته، ولزوجها وعظمته، مبينة له: أنه فراش رسول الله ﷺ الطاهر المطهر، وأنت رجل مشرك لا تصلح للجلوس عليه، إنه الإيمان، الإيمان إذا خالطت بشاشته شغاف القلوب، وامتزجت حلاوته بالأرواح والعقول والجوارح.

السبل كلها تعمى على سفير قريش وزعيمها أبي سفيان وتنتهي به إلى سخرية الحياة:

لم يقنع أبو سفيان بهذا الدرس الذي تلقاه من أقرب الناس إليه لحمًا ودمًا، من ابنته في بيت رسول الله ﷺ، ولكنه ذهب إلى رسول الله ﷺ فكلَّمه فيما هو قادم من أجله، فلم يردَّ عليه شيئًا، ثم ذهب إلى أبي بكر فكلَّمه ليكلم له رسول الله ﷺ، فأبى عليه الصديق، ثم أتى عمر بن الخطاب وكلمه ليشفع لهم عند رسول الله ﷺ، فكان عمر أشد الناس وطأة على صلعة كبرياء زعيم البطحاء، ثم أتى علي بن أبي طالب وعنده زوجه فاطمة بنت سيد الخلق ﷺ، وابنها الحسن غلام يدب على الأرض بين يديها، فاستعطف عليًا وسأله بالرحم أن يشفع له إلى رسول الله ﷺ فأبى عليه، ولكنه لايَنَه ورفق به، فالتفت زعيم البطحاء في ذلة إلى السيدة النبيلة فاطمة البتول وقال لها: يا بنت محمد؟ هل لك أن تأمري بُنَيَّك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر، فقالت أم الحسنين سيدة نساء العالمين: والله ما يبلغ بُنَيَّ هذا أن يجير بين الناس،

وما يجير أحد على رسول الله ﷺ.

أفٍّ للكبرياء الجوفاء والغرور التافه، أليست لكم عقول؟ حاربتم محمدًا ﷺ وآذيتموه وأصحابه حتى أخرجتموهم من ديارهم وأموالهم، وألبتم عليه من استطعتم من أخلاط الحقد والبغضاء من اليهود والمنافقين، فهزمكم وانتصر عليكم، وعفا عنكم وجاءكم مسالمًا موادعًا يزور بيت ربه ويعظم حرمته فصددتموه ومنعتموه، كان في استطاعته أن يستأصل شأفتكم، ولكنه أبقى عليكم تفضلًا منه فشارطتموه فأفرطتم في شروطكم فقبلها، وأعطاكم الفرصة التي لا تعوض.

فهل كان من مروءة الوفاء أن تقابلوا كل ذلك بهذا الغدر الوضيع؟ وهل كان من مكارم العروبة أن تستذلوا أنفسكم هذا الذل الذي يذهب بكم إلى أن زعيمكم سيد البطحاء يتهانف أمام غلام يدب بين يدي أمه ليجير بينكم وبين جده سيد العالمين ﷺ، ولكنه الكفر الأبله والشرك الجهول، لا طريق له إلى العزة والكرامة، ولا طريق له إلى السمو النفسي، إنك إن تسمُ به يخلد إلى الأرض يلهث لأنه خبيث ظلوم.

أبو سفيان يعود إلى قريش مثقلًا بالخيبة في سفارته:

عاد أبو سفيان زعيم قريش إليها خائبًا، وأمر رسول الله ﷺ بجهازه وأمر المسلمين أن يتجهزوا، وسار إلى مكة في حشود

جند الله وكتائب الإيمان وأنصار الإسلام، وفي الطريق التقطت عناية الله أبا سفيان رحمه الله تعالى، فدخل في الإسلام بعد أن رأى عظمته وعظمة نبيه ﷺ، وفتح الله على رسوله ﷺ مكة المشرفة، ودخلت قريش كلها في الإسلام، وأطلقهم رسول الله ﷺ وعفا عنهم، فكانوا بفضل الوفاء بالعهد من رسول الله ﷺ وأصحابه وببركة هدنة الحديبية هم كتائب الجولة الأولى لفتوح الإسلام كلها، وكانت مكة قلعةً وحصنًا من قلاع وحصون الدعوة إلى الله بالعلم والحجة النيرة ثم بالجهاد في سبيل الله.

فدائية أبي بصير أدت إلى إلغاء شرط من أقسى شروط المعاهدة:

ومن أروع مظاهر المنهج الإسلامي في معاهدة الحديبية إلى جانب مظاهره في قصة أبي جندل - ما أجمع على روايته الأئمة في السيرة النبوية أن النبي ﷺ لما رجع من الحديبية إلى المدينة أتاه أبو بصير عتبة بن أسيد الثقفي، وكان ممن حُبس بمكة فلم يستطع الهجرة مع المهاجرين، فتخلص والناس مشغولون بالهدنة وأحاديثها، وفرَّ بدينه، ولم يكن قد علم بشروط المعاهدة، فكتب فيه المشركون إلى رسول الله ﷺ أن يرده عليهم وفاء بعهدهم، وبعثوا بالكتاب رجلًا من بني عامر بن لؤي ومولى لهم، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بصير إنا قد أعطينا

هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا، فانطلق إلى قومك» قال أبو بصير: يا رسول الله أتردني إلى المشركين يفتنوني في ديني؟ قال النبي ﷺ: «يا أبا بصير انطلق فإن الله سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا».

نعم يا رسول الله صلوات الله وسلامه وبركاته عليك، لا يصلح لنا في ديننا الغدر، هذا درس من دروس تربيتك لأمتك تربية ترتفع بها إلى آفاق العظمة الأخلاقية النبيلة؛ لأن الغدر لؤم، واللؤم شيمة الأدنياء الذين لا يرتفعون عن مواطئ أقدام الحياة.

كان موقف أبي بصير في أزمة الحديبية من أشجع وأنبل مواقف البطولة:

صدع أبو بصير بأمر النبي ﷺ وانطلق مع رسولَيْ المشركين وفاءً بعهدهم، وليلقَ في سبيل هذا الوفاء ما يلقى عظماء النفوس في سبيل توطيد مبادئ القيم العليا لبناء الحياة.

ولكن هل ترضى نفوس الأعلياء أن تذل وتخضع لزمجرة الباطل؟ لا، لن ترضى؟ وأين المخرج؟ إن رسول الله ﷺ -وهو الذروة في قمة الفضائل الإنسانية- قد وفَّى لأعدائه أصدق الوفاء وأعظمه، فرد إليهم أبا بصير، وليس في عنق أبي بصير عقد لأحد، فليتصرف لينجو بإيمانه ودينه.

ففي الطريق وهو مع رسولَيْ قومه نزل ثلاثتهم منزلًا

يستريحون ويطعمون من ثمرات معهم، والحديث شجون، فقال أبو بصير للعامري: والله إني لأرى سيفك هذا جيدًا، فانتفخت أوداج العامري بلهًا واستكبارًا، وسلَّ سيفه من غمده، وقال: أجل إنه والله لجيد، لقد جربت به ثم جربت، وسأضرب به في الأوس والخزرج يومًا إلى الليل.

وكأنه بهذا الغرور الأحمق قد أثار حمية أسيره أبي بصير لدينه وأصحابه وأنصار نبيه ﷺ، فقال له: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه فضربه به حتى برد، وفرَّ رفيق العامري مذعورًا يهوي هُوِيًا حتى أتى المدينة، فدخل المسجد وهو يعدو، فقال رسول الله ﷺ.. حين رآه: «لقد رأى هذا ذعرًا» فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: لقد قُتل والله صاحبي وإني لمقتول، فجاء أبو بصير يحمل معه سلب العامري وقال للنبي ﷺ مبينًا موقفه: يا نبي الله قد أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم، ثم أنجاني الله منهم، وقدَّم إلى النبي ﷺ سلب قتيله ليخمسه كما يخمس الغنائم، فقال النبي ﷺ متعجبًا من شجاعته: «ويل أمه مِسْعَر حرب لو كان له أحد» ثم قال «يا أبا بصير إني إن خمستُ السلب لم أفِ بالذي عاهدتهم عليه، ولكن شأنك بسلب صاحبك، واذهب حيث شئت» فلما سمع ذلك أبو بصير عرف أنه سيرده إليهم وفاءً بالعهد، فخرج حتى أتى سيف البحر.

أبو بصير وأبو جندل يؤلِّفان كتيبة في طريق المدينة ترعب قريشًا فتذل وتستغيث:

وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل، ويلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج رجل من قريش قد أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عصابة تضم ثلاث مئة رجل أو يزيدون، فما يسمعون بِعيرٍ لقريش خرجت إلى الشام إلا اعترضوا طريقها وقتلوا من فيها، وأخذوا الأموال التي كانوا يتجرون بها، فأرسل المشركون إلى النبي ﷺ يناشدونه بالله والرحم لما أرسل إلى أبي بصير ومن معه، ومن أتاه منهم فهو آمن، وتخلَّوا في ذلة عن أقسى شروطهم التي صبُّوا فيها كئوس كبريائهم، وقد غدروا وخانوا ووفَّى رسول الله وأصحابه، فذلت قريش من حيث طلبت العز، وعز رسول الله ﷺ وأصحابه من حيث عُدِيَ عليهم، ونصرهم الله نصرًا مؤزرًا وأثابهم على وفائهم الفتح المبين.

سياسة الحكمة المسالمة أمام عنجهية الغرور المستكبر:

ومن مظاهر الوفاء بهذه المعاهدة أن رسول الله ﷺ لما اعتمر عمرة القضية ودخل مكة في سلاح الراكب وفاءً لقريش بعهدها أقام بها ثلاث ليال، فما أتى الصبح من اليوم الرابع حتى أتاه سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، ورسول الله ﷺ في مجلس الأنصار يتحدث مع سعد بن عبادة، فصاح حويطب: نناشدك الله والعقدَ لما خرجت من أرضنا فقد مضت

الثلاث، فقال سعد بن عبادة: كذبتَ لا أم لك، ليست بأرضك ولا بأرض آبائك، والله لا يخرج، ثم نادى رسولُ الله ﷺ سهيلًا وحويطبًا فقال: «إني قد نكحت فيكم امرأة -يعني ميمونة بنت الحارث- فما يضركم أن أمكث حتى أدخل ونصنع الطعام، فنأكل وتأكلون معنا؟» فقالوا: نناشدك الله والعقد إلا خرجت عنا، فأمر رسول الله ﷺ فأذن بالرحيل.

في كل مظهرٍ من مظاهر الوفاء بهذه المعاهدة نجد صورًا من النبل النبوي والتسامي في الرفق بالأعداء والمسالمة معهم، وفتح باب التقارب، تعبر أصدق تعبير عن مدى الحرص على مبادئ الوفاء بالعهد في هذا الدين القيم.

لم يُنظِر المشركون المسلمين بقيادة رسول الله ﷺ لحظاتٍ من الزمن بُعَيْدَ انقضاء الأجل المضروب للإقامة في مكة حتى جاءوا النبي ﷺ يلحون عليه في الخروج منها وفاءً بالعقد الذي تم بينهم في شروط المعاهدة.

تلطف ومبالغة في المسالمة أمام جفوة الشرك وحقد الوثنية:

وقد أراد النبي ﷺ أن يبالغ في التلطف بهم ليستل من صدورهم الحفيظة على الإسلام والمسلمين، ويستميلهم إلى الوفاق والمسالمة، فأخبرهم حين ناشدوه أنه تزوج فيهم امرأة ولما يدخل بها، ولا يضرهم شيئًا أن يمكث بمكة ريثما يدخل

بأهله، وزادهم في التلطف معهم أنه يريد أن يشاركوه وأصحابه طعام وليمة زواجه فيهم، ولكنهم أبوا إلا جفوة وتنائيًا، وعادوا يلحون في خروجه عنهم مناشدينه الله والعقد، فلم يسعه ﷺ أمام جفائهم وتأبيهم إلا أن أمر فأذن في أصحابه بالرحيل وفاء بما عاهدهم عليه.

ولما كانت معاهدة الحديبية هي أجل معاهدات الإسلام وأخطرها لِما احتف بها من أحوال وشئون ولِما اشتملت عليه من شروط، ولِما برز فيها من السياسة الحكيمة الحازمة التي عالج بها رسول الله ﷺ الموقف من جانبيه، جانب عتوّ المشركين طغيانًا وكفرًا، وجانب ما أصاب المسلمين من الشدة والحيرة، ولِما تجلى فيها من مواقف الحرص البالغ على الوفاء بعقدها على ما كان فيه من القسوة على المسلمين، ولِما أعقب ذلك كله من الخير والبركة للإسلام والمسلمين، بما كشف ستر الغيب عنه في تتابع الأحداث.

وكان أعظم ذلك وأجله الفتح المبين، فتح مكة الذي مهد للمد الإسلامي وفتوحاته التي نشرت العدالة والرحمة في أرجاء الأرض.

واقتضت الحكمة الإلهية أن يعقب هذا الفتح فترة الحديبية التي انتهت بغدر أهل مكة وخيانتهم لله ورسوله في نقض هذه المعاهدة والعبث بشروطها ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

آثار معاهدة الحديبية
في إبراز معالم منهج الرسالة

لذلك كله جعل علماء الإِسلام وأئمته معاهدة الحديبية منذ عقدها والتزام المسلمين الوفاء بعهدها - نصب أعينهم في مواقفهم الصارمة لحماية أهل الذمة والمعاهدين أن يُظلموا، أو يضاموا، وهم في ظل الإِسلام يرعون ذمامه وعهده.

وجعلها الخلفاء والأمراء والولاة وصالحو ملوك الإِسلام أصلًا يئلون إليه في بناء علاقة المسلمين بغيرهم من الطوائف والأمم والشعوب، وظلًا ظليلًا يفيء إليه المعاهدون إذا أصابهم في ظل الإِسلام ضيم، أو هُضم لهم حق، أو وقع عليهم ظلم.

ولذلك جاءت السنة النبوية بما تضمنته هذه المعاهدة المباركة من أصول وقواعد وجاءت الوقائع والحوادث التطبيقية في تاريخ العدالة الإِسلامية قائمة على دعائم من مبادئ هذه المعاهدة التي نبعت من الهداية القرآنية، ومن إشراق أنوار النبوة المحمدية الخاتمة.

روى أبو داود في سننه أن رسول الله ﷺ قال: «من ظلم معاهَدًا، أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة»، وفي حديث عبد الله بن أرقم أن النبي ﷺ ولّاه على جزية أهل الذمة، فلما وَلّى مِنْ عنده ناداه فقال: «ألا من ظلم معاهدًا، أو كلفه فوق طاقته أو انتقصه

مـن حقه، أو أخذ منه شـيئًا بغير طيب نفـس فأنا حجيجه يوم القيامـة» وفي حديث عمرو بن عبسـة الذي ردَّ به معاوية رضي الله عنهما عن قصده مع الروم أن النبي ﷺ قال: «من كان بينه وبين قوم عهدٌ فلا يحلَّن عقدةً ولا يشـدها حتى يمضي أمده أو ينبذ إليهم على سواء».

وقد حـذر النبي ﷺ من الغدر تحذيرًا شـديدًا فقال: «لكل غـادر لواء يوم القيامـة يعرف به بقدر غدرتـه، يقال هذه غدرة فلان» وقال ﷺ: «من أمن رجلًا على نفسه فقتله فأنا بريء من القاتل» وقال صلوات الله وسلامه عليه: «ما نقض قوم العهد إلا أديل عليهم العدو».

وقد جعـل النبي ﷺ المسـلمين في الوفـاء بالعهد والذمة سواسـية: كبيرهم وصغيرهـم، وعظيمهـم، وأدناهم، فقال: «ذمة المسـلمين واحدة، يسعى بها أدناهم، فمن أخفر مسلمًا فعليـه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفًا ولا عدلًا»، وفي رواية أخرى: «المسلمون تتكافأ دماؤهم، وهم يد على من سـواهم، ويسـعى بذمتهم أدناهم».

ذلة وهوان بعد العزة والطغيان

واخزياه؟! قريش بهيلها وهيلمانها، وعنجهيتها وغرورها، وبأوهـا واسـتكبارها فـي الأرض، [١٥]قريـش التـي أبت وقت

(١٥) البأو: التكبر. (المجلة)

شموخها وقوتها الظالمة أن تقبل هدى الله الذي جاءها به رجل من أنفُسِها وأنْفَسِها، تعلم صدقه وأمانته، ومدخله ومخرجه، وما كان عليه من مكارم الأخلاق، وسواء السريرة منذ نشأته بينها، وأبت أن تترك من قبل هذا الهدى المنير آمنا في سربه، أمينًا على دينه وعقيدته، فآذت طلائع الإيمان وصبت عليهم البلاء صبًا وهم صابرون محتسبون، يتأسون برسول الله ﷺ فيما يلقى من صور الأذى وفجور المحن والكوارث، حتى أخرجته وأخرجت الذين آمنوا برسالته وهداه من ديارهم وأموالهم وعشائرهم مهاجرين إلى دار الأمن والإيمان، ومتبوأ اليقين والإسلام.

قريش هذه تأتي اليوم ذليلة مفزعة مرعوبة، خائفة منتفضة تطلب من مخذولها سيد البطحاء أبي سفيان بن حرب ـ الذي عرفته في دهيه[١٦] ومداهناته، ولفه ودورانه في قيادة عيرها والفرار بها، ولم تعرفه قط في بطولة معركة إلا مخدوعًا بسحر أخبث لعين الشياطين حيي بن أخطب فرعون فراعنة اليهود في تجمعات الخندق والفرار بها مهزومًا مدحورًا ـ أن يستأمن محمدًا ﷺ، وهي لا تنسى مواقف طغاتها معه ومع أصحابه، حتى أخرجوهم من ديارهم إلى غربة لا يؤنسهم فيها

(١٦) الدهو والدهي: لغتان في الدهاء. (المجلة)

إلا إيمانهم وما وجدوه في مهجرهم من إخاء وإيثار، ومحبة وبذل للمكارم.

وخرج مخذول قريش، سيد بطحائها ومعه حكيم بن حزام، وبديل ابن ورقاء الخزاعي ليأخذ لقريشه أمانًا من محمد ﷺ، فوجد الطريق مقفلة في وجهه محبوسة لا يمر فيها إلا من كان حاملًا جواز مرور مختوم بخاتم أمير الأنقاب.

ووقف المَسِير بداهية قريش وصاحبيه عند مر الظهران، فلما رأوا عسكر رسول الله ﷺ في أهبته الحربية الكاملة، وكثافة جنده أفزعهم ما رأوا، وأرعبهم كثرة النيران التي أوقدها عسكر المسلمين بأمر رسول الله ﷺ التي كانت كأنها نيران عرفة، وهي أعظم نيران عرفتها الجاهلية الجاهلة، فقال داهية قريش أبو سفيان مرعوبًا مفزعًا لصاحبيه حكيم وبديل: ما هذه النيران، والله لكأنها نيران عرفة!! فقال بديل بن ورقاء: هذه نيران بني عمرو، يعني نيران خزاعة، وبينا أبو سفيان وحكيم وبديل يتقاولون رآهم ناس من حرس رسول الله ﷺ فأخذوهم.

وكان حرس رسول الله ﷺ نفرًا من الأنصار وكان عمر بن الخطاب عليهم تلك الليلة، فجاءوا بهم، فقالوا: جئناك بنفر أخذناهم من أهل مكة، فقال عمر وهو يضحك إليهم: والله لو جئتموني بأبي سفيان ما زدتم، قالوا: والله قد أتيناك بأبي سفيان،

فقال: احبسوه، فحبسوه حتى أصبح فغدا به عمر على رسول الله ﷺ، واستسلم أبو سفيان ذليلًا بين يدي رسول الله ﷺ.

وفي رواية أن العباس بن عبدالمطلب ـ وكان قد أسلم قديمًا ـ فيما تقول بعض الروايات ـ وكان يكتم إسلامه لمصلحة المسلمين الذين بقوا في مكة ـ لقيهم فأجارهم وأدخلهم على رسول الله ﷺ، فأسلم بديل بن ورقاء، وحكيم بن حزام، وتأخر إسلام أبي سفيان، فتركوه يرجع إلى قريش ليخبرهم بما رأى وسمع، فلا ترتفع رءوسهم أمام كتائب الإسلام، ويتحقق المقصد الأسنى لرسول الله ﷺ في عدم نشوب حرب بينه وبين قريش.

حبس أبي سفيان عند مضيق الجبل:

فقال أبو بكر الصديق –رضي الله عنه– ـ كما في مرسل أبي سلمة، ويحيى بن عبد الرحمن عند ابن أبي شيبة لما ولّى أبو سفيان ـ: يا رسول الله لو أمرت بأبي سفيان فحبس على الطريق؟ وفي مغازي موسى بن عقبة أن العباس قال للنبي ﷺ: لا آمن أن يرجع أبو سفيان فيكفر، فاحبسه حتى يرى جنود الله، ففعل، فقال أبو سفيان: أغدرًا يا بني هاشم؟ قال العباس لا، ولكن لي إليك حاجة، فتصبح فتنظر إلى جنود الله وما أعد الله للمشركين، وذكر الواقدي أن العباس قال لأبي سفيان: إن أهل النبوة لا يغدرون.

وقـال النبـي ﷺ للعبـاس : احبسـه عند خطـم الجبل ، أي مضيقـه ليرى كتائـب المجاهدين ، ويرى أهبتهـم ، فلا يفوته رؤيـة أحد مـن جنود الله ، ولا يفوته شـيء من أهبتهـم ، ليزداد رعبه ويخبر قومه بما رأى ، فلا ترفع لهم رأس بمواقفة القتال .

فحبسـه العبـاس حيـث قال لـه رسـول الله ﷺ حتى أصبح النـاس ، وقام قائم الحـق ينادي بالأذان لصـلاة الصبح ، فأجابه العسـكر بأصوات مدوية ، ففزع داهية قريش أبو سـفيان فزعًا شـديدًا ، تزايلـت منـه مفاصله ، وتفككـت روابـط أعضائه ، وأخـذه الدهـش والذهول فلم يدر ماذا يقـول ، وماذا يفعل ، ثم قال للعباس : ما يصنع هؤلاء ؟ قال العباس : الصلاة .

وعنـد ابن أبي شـيبة : ثار المسـلمون إلـى طهورهم ، فقال أبو سـفيان للعباس : ما للناس ؟ أمروا بشـيء ؟ قال العباس : لا ، ولكنهـم قاموا للصلاة ، فذهب العباس به إلى مصلى النبي ﷺ بالناس ، فلما رأى أبو سـفيان اقتداء جموع المسـلمين به ﷺ في الصلاة قال : ما رأيت كاليوم طاعة قوم ، جمعهم من هنا وها هنا ولا فارس الأكارم ، ولا الروم ذات القرون بأطوع منهم له ، يا أبا الفضل أصبح ابن أخيـك والله عظيم الملك ، فقال العباس : إنه ليس بملك ، ولكنها النبوة ، فقال أبو سـفيان ـ والرعب قد اقتلـع قلبه من بيـن أضالعه ـ أو ذاك ، وهكـذا كان إيمان داهية قريش .

محاورة نبوية لإنقاذ أبي سفيان من محنة الكفر

ولمـا فـرغ ﷺ من صلاتـه بأصحابه رأى أبا سـفيان، فقال لـه: «ويحـك يا أبا سـفيان؟ ألم يأن لـك أن تعلـم أن لا إله إلا الله؟» فقال أبو سفيان: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك، وأكرمك، وأوصلك، لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شـيئًا، وزاد الواقدي أن أبا سـفيان قال: لقد استنصرت إلهي، واسـتنصرت إلهك، فوالله ما لقيتك مـن مرة إلا نُصرت علي، فلو كان إلهي محقًا وإلهك مبطلًا لقد غلبتك.

ثم قال له رسول الله ﷺ: «ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسـول الله؟» فقال أبو سـفيان: بأبي أنت وأمي، ما أحلمـك وأكرمـك، وأوصلك أما هذه ففي النفس منها شـيء، فقال العباس -رضي الله عنه- لمخذول قريش وسـيد بطحائها وهو يرى تأبيه عن الإقرار برسـالة محمد ﷺ: ويحك أسـلم، واشـهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمـدًا رسـول الله قبل أن تضرب عنقك، وهنا فقط يسـتخزي أبو سفيان، فأسلم إسلامًا يحمي به رأسه أن تتدأدأ تحت قدميه[17]، وهذا إسلام أصح منه إسلام من يحشرج وقد بلغت روحه الحلقوم، أو هو إسلام أشبه بإسلام فرعـون إذ أدركه الغرق، فقال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنـو إسـرائيل، وعز عليه وهو يعلم أنه بيـن مخالب الموت أن

---

(١٧) تدأدأتْ رأسه تحت قدميه: سقطت تحت قدميه. (المجلة)

يقـول: آمنـت أنه لا إلـه إلا الله الواحد الأحد، رب السـماوات والأرض ومـن فيهن، وما فيهن، فَرُدَّ عليه هذا الإيمان الفاسـد المفسد، وقيل له:

﴿ ءَآلۡـَٔـٰنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾

(يونس: ٩١)

وعند الواقدي: أن أبا سـفيان وحكيم بن حزام قالا لرسـول الله ﷺ: يا رسول الله، جئت بأوباش الناس، من يعرف، ومن لا يعرف إلى أهلك وعشـيرتك؟! فقال ﷺ: «أنتم أظلم وأفجر، فقـد غدرتم بعهد الحديبيـة، وظاهرتم على بنـي كعب بالإثم والعـدوان في حـرم الله وأمنه» فقالا: صدقت يا رسـول الله، ثم قال أبو سـفيان، وحكيم: لو جعلت حـدك ومكيدتك لهوازن فهم أبعد رحمًا، وأشـد عـداوة لك؟ فقال ﷺ: «إني لأرجو من ربي أن يجمع ذلك كله، فتح مكة وإعزاز الإسلام بها، وهزيمة هوازن فإني أرغب إلى الله في ذلك».

سياسة العباس لإنقاذ رأس أبي سفيان

وقد استكشـف العباس- رضي الله عنه- ما في دخيلة سـيد بطحـاء قريش أبي سـفيان بن حرب من عنـاد وتأب متغطرس عن الإذعان بالإسـلام وقبول هدايته، وخلع مواريث الجاهلية، وتعاصٍ عن الإيمان برسالة رسول الله ﷺ، فسلك به منعرجات مواريثه الجاهلية ليستنزله من علياء عنجهيته لينقذه من براثن

الدهـي والمداهنـة، ويجعله على مشـارف الجـادة ليدخله في رياض الإِسـلام، والعبـاس --رضي الله عنـه-- أعرف بقريش ومـن بقي فيهـا مـن ذوي الزعامـات، وكان يخشـى على أبي سـفيان - إذ لمح نهزة - أن يرتد عن هذا الإِسـلام الذي أسلمه تحت رهبة السيف خوفًا على رأسه أن يفارق عنقه.

فقـال العباس -رضي الله عنه-: يا رسـول الله إن أبا سـفيان رجـل يحب الفخر، فاجعـل له، فقال ﷺ - وهـو يعلم طبيعة قريش وطبيعة زعاماتها -: (نعم).

وعند ابن أبي شيبة أن أبا بكر الصديق -رضي الله عنه- قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب السماع والشرف، فقال ﷺ: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»، فقال أبو سـفيان: وما تسـع داري؟ فقال ﷺ: «ومن دخل المسجد فهو آمن» فقال أبو سـفيان: وما يسـع المسـجد؟ فقال ﷺ: «ومن أغلق بابه عليه فهو آمن»، فقال أبو سفيان: هذه واسعة.

ولما أراد أبو سـفيان الانصراف إلـى قومه بعد أن رأى بعين بصـره كثافة جند الله وحرد كتائب المجاهدين قال له العباس: النجاءَ إلى قومك، فأسرَع إلى مكة حتى إذا جاءها صرخ بأعلى صوته: يا معشـر قريش، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به، أسلموا تسلموا، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فقالوا لـه: قاتلك الله وما تغني عنـا دارك؟ فقال: ومن أغلق عليه بابه

فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن.

فقامت إليه زوجته هند بنت عتبة، فأخذت بشاربه، وقالت: اقتلوا الحميت الدسم الأحمس، قَبُح من طليعة قوم، فقال أبو سفيان لقومه: ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم، فقد جاء محمد بما لا قبل لكم به، فتفرقوا إلى دوركم وإلى المسجد.

وإنما حذر أبو سفيان قومه هذا التحذير الشديد المرعب خوفًا عليهم أن تطأهم كتائب الفتح، فينالهم من القتل والدمار ما لا قبل لهم برده، والوقوف أمامه؛ لأنه رأى من كثافة جيش الجهاد وعدته وهو محبوس عند مضيق الجبل شيئًا أذهله وأفزعه على قومه.

وكان رسول الله ﷺ - بعد أن أمر العباس -رضي الله عنه- بحبس أبي سفيان عند خطم الجبل ليرى جند الله وأهبتهم للفتح - أمر مناديًا ينادي: «لتصبح كل قبيلة عند راية صاحبها، وتظهر ما معها من الأداة والعدة».

إظهار قوة الجيش لإرعاب قريش دون حرب:

وأصبح الناس على ظَهْر وقدم، بين يدي رسول الله ﷺ، ومرت الكتائب بألويتها وقادتها، والكتائب على راياتها، كتيبة كتيبة على أبي سفيان - وهو يراها منتفضًا مرعودًا مرعوبًا- بألويتها وقادتها وراياتها وعدتها وأداتها تحقيقًا لأمر رسول الله ﷺ، فجعل أبو سفيان يسأل العباس

-رضـي الله عنه- عن كل كتيبة تمر ، فـإذا قيل له هم بنو فلان ، قال : ما لي ولبني فلان ، حتى مرت عليه أشـجع برجالها وأهبتها فسـأل عنهـم وأُخبر بهـم ، فقال هـؤلاء كانوا أشـد العرب على محمد ، فقال له العباس -رضي الله عنه- : أدخل الله تعالى الإسلام في قلوبهم ، فهذا فضل الله . ثم سـأل أبو سفيان العباس عن مرور كتيبـة رسـول الله ﷺ ، فقـال العباس- رضي الله عنـه- : لو أتت الكتيبـة التي هو فيها لرأيت الخيل والحديد والرجال ، وما ليس لأحـد بـه طاقة ، فقال أبو سـفيان ومن له بهـؤلاء طاقة ؟ وجعلت الكتائب تمر ، كل ذلك يقول أبو سـفيان : ما مر محمد ؟ فيقول العبـاس -رضـي الله عنه- : لا ، حتـى أقبلت كتيبة لـم ير مثلها ، وهم في الحديد لا يرى منهم إلا الحدق - أي سـواد العين - قال أبو سـفيان : من هذه ؟ قال العباس : هؤلاء الأنصار ، عليهم سـعد بـن عبادة ، معه رايتهم ، فقال سـعد بن عبادة لما رأى أبا سـفيان وهو يمر بالراية النبوية : يا أبا سفيان ، اليوم يوم الملحمة ، اليوم تسـتحل الكعبة ، فقال أبو سـفيان : يا عباس ، حبـذا يوم الذمار ، ... إنـه لشـدة ما داخله مـن الرعب والخوف على نفسـه وقومه فهـم من كلمة سـعد بن عبـادة أنه يتوعده ، ويتوعـد قومه ليوقع بهم جزاء ما قدمت أيديهم وألسـنتهم من فجور في إيذاء رسـول الله ﷺ ، وإيذاء أصحابه الذين استضعفوا في مكة قبل الهجرة.

فقد كذبوه ﷺ ، وسـخروا منه ، واسـتهزءوا بـه ، وتقولوا

عليه، وقاتلوه ووقفوا سدًا أمام رسالته، حتى أخرجوه من بلده حرم الله ومأمنه، وهي أحب بلاد الله إليه.

وآذوا أصحابه بالقول والفعل، وأنزلوا بهم من المحن والبلاء ما لو نزل بالشوامخ الرواسي لدكها، فلجأ إلى العباس -رضي الله عنه- يستنهض همته، ويحرك في نفسه عوامل مروءته ومكارم أخلاقه، ويحتمي به وبمكانته عند رسول الله ﷺ، ومحبته له، وإعظامه له، وقبول شفاعته.

وكأن أبا سفيان يقول للعباس: هذا يومك الذي يلزمك فيه حفظي وحمايتي وحفظ قومك وبيضتك لمكانك من رسول الله ﷺ، ومنزلتك عنده، ومحبته لك وإقباله عليك، وقبول مشورتك من أن ينالني مكروه، أو ينال قومك تسلط الغزاة عليهم، ليستبيحوا حرماتهم، ويستأصلوا شأفتهم.

وعند ابن إسحاق أن كلمة سعد بن عبادة المتوعدة سمعها عثمان بن عفان، أو عبد الرحمن بن عوف -رضي الله عنهما، فقال من سمعها منهما: يا رسول الله، ما نأمن أن تكون لسعد في قريش صولة. وقيل: إن الذي سمعها وقال لرسول الله ﷺ هذه المقالة المستعطفة لرسول الله ﷺ هو عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، واستبعد ذلك ابن حجر بأن عمر كان ظاهر العداوة لهم، وهذا لا يبعد عن الصواب.

وفي رواية أن أبا سفيان قال للنبي ﷺ لما حاذاه وهو يمر

فــي كتيبته الخضــراء : أمرتَ بقتل قومك ؟ فقال رســول الله ﷺ : « لا » ، فذكر أبو سفيان ما قاله سعد بن عبادة ، وناشده الله والرحم في قومه ، وقال له في مناشــدته : إنك أبر الناس ، وأرحمهــم وأوصلهم ، فقال ﷺ : « يا أبا ســفيان ، اليوم يوم المرحمة ، اليوم يعز الله تعالى قريشًــا » وأرسل ﷺ إلى سعد بن عبادة ، فأخذ الراية منه ، فدفعها إلى ابنه قيس ، وهذا أصح مــا قيل فــي الروايات ، إذ رأى ﷺ بهذا التصرف السياســي الحكيم أن الراية لم تخرج عن سعد إذ صارت لابنه ، وهناك روايات تقول : إن النبي ﷺ بعث إلى سعد عليًا ليأخذ الراية منــه ، وقال لعلي : « كن أنت الــذي تدخل بها » وفي رواية أنه ﷺ أعطاهــا للزبيــر –رضي الله عنه– ليدخــل بها ويركزها عند الحجون .

ودخلت كتائب الجهــاد بثقلها مكة آمنة مطمئنة إلى فضل الله وقــوة تأهبهــا القتالي ، وأمر رســول الله ﷺ خالد بن الوليد أن يدخل من كدي بأســفل مكة ، ودخل ﷺ بكتيبته الخضراء من كداء بأعلــى مكة كما هو الصحيح الذي يدل عليه صراحة حديــث عائشــة –رضي الله عنهــا عند البخاري ، عن هشــام بن عروة ، عن أبيه ، أن عائشة أخبرته أن النبي ﷺ دخل عام الفتح من كداء التي بأعلى مكة ، وما جاء في الروايات غير ذلك يظهر أنه من قبيل الاشتباه على بعض الرواة .

أمر رسول الله ﷺ بالكف عن القتال إلا دفاعًا

وأمر رسول الله ﷺ المجاهدين أن يكفوا أيديهم، ولا يقاتلوا إلا من بدأهم بالقتال، ولما دخل خالد بن الوليد -رضي الله عنه- من حيث أمره رسول الله ﷺ لقي جماعة من قريش الذين استبقاهم الهرب والفرار من السيف، فيهم صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو متجمعين ليقاتلوا كتائب الفتح، فناوشوا خالدًا وجنده الذين كانت رايتهم في يده، وهم بنو سليم فقتلوا من جند خالد مسلمة بن الميلاء الجهني، فاضطر خالد -رضي الله عنه- لمدافعتهم بالقتال، فقتل منهم رجالًا، فانهزموا فرارًا مولين الأدبار، حتى دخلوا البيوت، وأغلقوا دونهم أبوابها، وفرت منهم طوائف إلى أعالي التلال ورءوس الجبال، وتبعهم المسلمون، وأكثروا من القتل فيهم، ورأى ذلك حكيم بن حزام وأبو سفيان بن حرب - ولم يكونا مع المقاتلين - فصاح حكيم بن حزام وأبو سفيان في قومهم وهم يفرون: يا معشر قريش، علام تقتلون أنفسكم، من دخل داره فهو آمن، ومن وضع سلاحه فهو آمن.. فجعل المهزومون يسرعون ويقتحمون الدور، ويغلقون أبوابها، ويطرحون السلاح في الطرقات، فيأخذه المسلمون، ولم يرفع بعد ذلك أحد من قريش رأسه.

ونظر النبي ﷺ فرأى بارقة السيوف فقال: «ما هذا وقد نَهيتُ عن القتال» فقال له أصحابه: نظن أن خالدًا بدئ بالقتال

وقوتـل فقاتل دفاعًا عن نفسـه وجنده، فقـال ﷺ لخالد: «لِمَ قاتلتَ وقد نهيتك عن القتال؟» فقال خالد: هم بدءونا بالقتال وقد كففت يدي ما استطعت، فقال ﷺ: «قضاء الله خير».

رواية غريبة وخطأ في تبليغ أمر النبي ﷺ

وفـي رواية عند الطبرانـي عن ابن عباس -رضـي الله عنهما، خطـب رسـول الله ﷺ فذكر حرمة مكة، وأن الله أحلها لرسـوله ﷺ ساعة من النهار، ثم عادت حرمتها، فقيل له ﷺ: هذا خالد بن الوليد يقتل، فقال ﷺ: «قم يا فلان فقل لخالد يرفع يده عن القتـل» فأتى الرجل خالدًا فقال لـه إن نبي الله يقول لك: «(اقتل مـن قدرت عليه) فقتل منهم سـبعين، وجاء الخبر إلى رسـول الله ﷺ، فأرسل إلى خالد: «ألم أنهك عن القتل؟» فقال خالد: جاءني فـلان، فأمرنـي أن أقتـل من قـدرت عليه، فأرسـل النبي ﷺ إلى الرجل الـذي كان قد بعثه لخالد يأمره برفع يده عن القتل، فقال له: «ألم آمرك أن تنذر خالدًا» فقال الرجل لرسول الله ﷺ: أردت أمـرًا، فـأراد الله أمرًا، وكان أمر الله فوق أمرك، وما اسـتطعت إلا الذي كان، فسكت النبي ﷺ وما رد عليه.

بحث وتحقيق في صحة هذه الرواية ومناقشة ما قيل فيها من تأويل متعسف

وهـذه الروايـة صعبـة التأويل جـدًا إذا صحت سـندًا؛ لأنه كيف يعقل أن يبعث رسـول الله ﷺ رجـلًا يختاره، فيقول له: «قم يا فلان» ويسـميه باسمه برسـالة إلى أحد أبطال قادة جند

الجهاد - وهو أشهر وأعرف قواد جيش الفتح - برسالة موجزة في عبارتها وأسلوبها، بينة الهدف في مقصودها، وهي: «قل لخالد فليرفع يده عن القتل» فيذهب الرجل، ويبلغ غير ما أرسل به إلى خالد، يبلغه رسالة مناقضة كل المناقضة في ألفاظها وأسلوبها وهدفها لرسالة رسول الله ﷺ التي كلفه إبلاغها خالد بن الوليد ليرفع يده عن القتل؟

ثم كيف يعقل أن ينسى الرجل المبعوث إلى خالد برسالة رسول الله ﷺ نص رسالته ﷺ على إيجازها الذي لا تجاوز به جملة واحدة، مؤلفة من عدة حروف لا تزيد على عدد أصابع اليدين، ثم يبلغ خالدًا رسالة مختلفة لم يقلها النبي ﷺ تزيد في كلماتها على الرسالة المكلف إبلاغها؟.

وإذا أحضر النبي ﷺ هذا الرجل وسأله عما بلغه إلى خالد ليعرف وجهة نظره فيما بلغه، فيقول له: «ألم آمرك أن تنذر خالدًا» والإنذار هو التخويف الشديد من عواقب المنذر من أجله، وهو الاستمرار في القتل، فيقول هذا الرجل في رده على النبي ﷺ متجهمًا متغاضبًا جافيًا كأنه يُذكِّر رسول الله بأمر فاته؟ فيقول مخاطبًا له ﷺ : أردت أمرًا، وأراد الله أمرًا، وكان أمر الله فوق أمرك.

هذه الجفوة المتجهمة المتغاضبة في مخاطبة النبي ﷺ وحدها كافية في إسقاط هذه الرواية عن القبول، وزعم أن هذا

الرجـل أنصـاري، وأنه تأول الـكلام لا محل لـه، ولا ينبغي أن يقال، وإلا فأين مكان التأويل؟ أفي رسـالة النبي ﷺ إلى خالد ليرفـع يده عـن القتل، وهي واضحة شـديدة الوضوح، لا إبهام فيها ولا غموض، وهي شديدة الإيجاز لا تعدو جملة واحدة؟ أم في كلام هذا الرجل الذي اخترعه فبلغه خالدًا؟

وكيف يسوغ التأويل باحتمال أن هذا الكلام المخترع الذي بلغه الرجل إلى خالد سـبق إلى سمع الرجل فبلغه خالدًا، وقتل خالد بسببه سبعين من قريش؟ وليس بين كلام النبي ﷺ الذي بعث به هذا الرجل إلى خالد وكلامه المخترع الذي بلغه خالدًا أدنى اشـتباه في لفظه ومعناه، فكيف يسـبق إلى سمعه نقيض ما بعثه به رسول الله ﷺ ليبلغه إلى خالد ليرفع يده عن القتل؟

نموذج مما أدب الله به المؤمنين في توقير النبي ﷺ:

ثم إن رد هذا الرجل الذي قيل إنه أنصاري على سؤال رسول الله ﷺ جاءت الرواية به في أسـلوب جـاف، متجهم متغضب، يبعد جدًا أن يصدر في مخاطبة رسـول الله ﷺ من رجل مؤمن صادق الإيمان، صفي اليقين، يعرف للنبي ﷺ قدره المنيف، ومنزلته مـن الله تعالى ومكانته في قلوب أمته، ويعلم أن الله تعالى أدب المؤمنيـن أدبًـا خاصًا فـي مخاطبتهم لـه ﷺ، وعلمهم كيف يتحدثـون إليـه، وكيـف يسـمعون منـه، وكيف يسـتجيبون لأوامره، رفعًـا لقدره ومنزلته فوق أقـدار ومنازل جميع خلقه،

تشريفًا لمقامه الأشرف بين أصحابه، وأجيال أمته من بعدهم، فقال تعالى يصف خلص أهل الإيمان:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

(النور: ٦٢-٦٣)

ففي هاتين الآيتين الكريمتين منهج تعظيم قدر النبي ﷺ، وبيان ما ينبغي أن يكون عليه حال المؤمنين في جميع أمورهم التي تربطهم به ﷺ نبيًا ورسولًا، أرسله الله تعالى بالهدى ودين الحق، وخلع عليه جلابيب حرصه عليهم، وعزة عنتهم عليه، وخصه باسمين من أسمائه الحسنى، فجعله رءوفًا رحيمًا بالمؤمنين، وهذا تعظيم لم يكن قط لغيره ﷺ؛ لأنه تعظيم يرتبط بأصل الإيمان برسالته وهدايته.

قال الزمخشري في كشافه: أراد الله عز وجل أن يريهم عظيم الجناية في ذهاب الذاهب عن مجلس رسول الله ﷺ بغير إذنه

فجعل ترك ذهابهم حتى يستأذنوه ثالث الإيمان بالله والإيمان برسوله، وجعلها كالتشبيب له، والبساط لذكره، وذلك مع تصدير الجملة بإنما، وإيقاع المؤمنين مبتدأ مخبرًا عنه بموصول أحاطت صلته بذكر الإيمانين، ثم عقبه بما يزيده توكيدًا وتشديدًا حيث أعاده على أسلوب آخر، وهو قوله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾

وضمّنه شيئًا آخر، وهو أنه جعل الاستئذان كالمصدق بصحة الإيمان وعرض بالمنافقين وتسللهم لواذًا.

والأمر الجامع الذي يجمع له الناس، وذلك نحو مقاتلة عدو، أو تشاور في خطب مهم أو تضام لإرهاب مخالف، وفي قوله:

﴿وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ﴾

أنه خطب جليل، لابد لرسول الله ﷺ فيه من ذوي رأي وقوة، يظاهرونه عليه، ويعاونونه، ويستضيء بآرائهم ومعارفهم وتجاربهم في كفايتهم، فمفارقة أحدهم في مثل تلك الحال مما يشق على قلبه ويشعث عليه رأيه، فمن ثمة غلظ عليهم، وضيق عليهم الأمر في الاستئذان مع العذر المبسوط ومساس الحاجة إليه، واعتراض ما يهمهم ويعنيهم، وذلك قوله: «لبعض شأنهم» وذكر الاستغفار للمستأذنين دليل على

الأحسن الأفضل أن لا يحدثوا أنفسهم بالذهاب ولا يستأذنوا فيه.

ثم قال الزمخشري في تفسير قوله جل وعلا:

﴿ لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾

لا تجعلوا تسميته ونداءه بينكم كما يسمي بعضكم بعضًا، ويناديه باسمه الذي سماه به أبواه، ولا تقولوا يا محمد، ولكن يا نبي الله، ويا رسول الله، مع التوقير والتعظيم والصوت المخفوض والتواضع.

وقال القرطبي في معنى قوله تعالى:

﴿ لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾

أي عظموه وخاطبوه في رفق ولين، وغير تجهم، وروي عن قتادة في تفسيرها: أمرهم أن يشرفوه ويفخموه.

فأين يقع ما جاء في رواية الطبراني منسوبًا إلى الرجل الذي قيل إنه أنصاري، وأن النبي ﷺ اختاره، وسماه باسمه مبعوثًا إلى خالد ليقول له إن رسول الله ﷺ يقول لك: «ارفع يدك عن القتل» فبلَّغ خالدًا رسالة تناقض رسالة النبي ﷺ في ألفاظها ومعانيها وهدفها، فلما سأله رسول الله ﷺ عن إبلاغه خالدًا ما لم يرسله به ﷺ تجهم وجفا، وتغاضب وخاطب النبي ﷺ بأسلوب لم يشم رائحة التوقير. والتعظيم وحسن الأدب، ولطف القول ولين الجانب، ورقة الألفاظ وخفض الصوت

والتواضع مما ينبغي أن يتحلى به كل مؤمن صادق الإيمان.

مــن هذا الأدب الرفيع الــذي أدب الله به المؤمنين جاءت به هاتان الآيتان الكريمتان اللتان أبرز الزمخشري وغيره ما فيهما من تشــريف وتعظيم لرســول الله ﷺ، وما جرى مجراهما من آيــات كثيرة في ســور متعددة من ســور القــرآن الكريم، نزلت لتبيــن للمؤمنيــن مقام شــرف رســول الله ﷺ وعظيــم منزلته عنــد ربه، ممــا يوجب علــى المؤمنين برســالته أن يكونوا في مخاطباتهم معه على سنن الإجلال والتعظيم.

وقد ســجل الله الفلاح بأســلوب الحصر للذيــن تأدبوا بهذا الأدب القرآني الرفيع في قوله تعالى:

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾

وكما قال تعالى في الإنافة بمقامه الأشرف، وبيان حقه على كل مؤمن ومؤمنة:

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٨﴾ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾

(الفتح ٨، ٩)

وقد ذهب علماء السلف إلى أن الضمير في قوله جل شأنه: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ راجع إلــى رســول الله ﷺ ومعناه:

تعظموا رسول الله ﷺ وتفخموه في أدب المخاطبة معه والتحدث إليه ومجالسته.

أسلوب أصرح في وجوب التزام توقيره:

ومن هذا القبيل قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾

(الحجرات: ٣)

في هذه الآية الكريمة من الحث على التزام أرفع منازل الأدب في مخاطبة رسول الله ﷺ بحيث لا يغمر صوتُه في جهارته صوتَ رسول الله ﷺ في محادثته.

والنهي عن الجهر له ﷺ بالقول كجهر بعض المتخاطبين لبعض في مخاطباتهم ومحاوراتهم ومحادثاتهم التي تستدعيها أمور دينهم ودنياهم، قد جعل مخالفته في المخاطبة سببًا لإحباط العمل، وقد يكون هذا الإحباط دون شعور من المخالف للنهي؛ لأنه لم يستحضر في مخاطباته النبي ﷺ ما يجب له من توقير وتعظيم وهيبة تحمل مخاطبه على خفض الصوت، ولين القول، ورقة الألفاظ، وهذا أمر خطير ووعيد شديد لمن يتبصر في أمره، ويكون مستحضرًا بقلبه تعظيم رسول الله ﷺ وتوقيره.

ولهذا أتبع هذه الآية الكريمة بآية امتدح فيها قومًا من ذوي الأدب الرفيع في مخاطبة النبي ﷺ فقال عز شأنه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾

(الحجرات: ٣)

فهذا ثناء على الذين اعتصموا بأدب توقير رسول الله ﷺ، وتعظيمه في مخاطباتهم وأحاديثهم في مجالستهم له ﷺ كما تقتضيه «العندية» في قوله: «عند رسول الله».

ومعنى ذلك أن هؤلاء الصفوة الذين استمسكوا بعواصم الأدب الرفيع مع رسول الله ﷺ فعزروه ووقروه، وعظموه وأظهروا إجلاله وتبجيله، إذ يكونون معه ولو لم يكونوا في مخاطبة له.

نفحات من تفسير الزمخشري لهذه الآيات

وللزمخشري نفحات من روعة الأسلوب فسر بها هذه الآيات في كشافه رأينا أن نقبسها منه لما فيها من إحسان في أداء المعنى القرآني الذي يبين ما ينبغي أن يكون عليه المؤمنون من تفخيم شأن رسول الله ﷺ وتشريفه بأفضل ما يجب له من التوقير والتعظيم، فقال: أعاد النداء عليهم – أي في قوله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ﴾

استدعاء منهم لتجديد الاستبصار عند كل خطاب وارد، وتطرية الإنصات لكل حكم نازل، وتحريك منهم لئلا يفتروا، ويغفلوا عن تأملهم وما أخذوا به عند حضور مجلس رسول الله ﷺ من الأدب الذي المحافظة عليه تعود عليهم بعظيم الجدوى في دينهم.

وذلك لأن في إعظام صاحب الشرع إعظام ما ورد به، ومستعظم الحق لا يدعه استعظامه أن يألو عملًا بما يحدوه عليه، وارتداعًا بما يصده عنه، وانتهاء إلى كل خير.

والمراد بقوله:

﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ﴾

أنه إذا نطق ونطقتم فعليكم أن لا تبلغوا بأصواتكم وراء الحد الذي يبلغه بصوته، وأن تغضوا منها بحيث يكون كلامه عاليًا لكلامكم، وجهره باهرًا لجهركم، حتى تكون ميزته عليكم لائحة، وسابقته واضحة، وامتيازه عن جمهوركم كشِيَةِ الأبلق غير خافٍ[١٨]، لا أن تغمروا صوته بلفظكم، وتبهروا منطقه بصخبكم.

وبقوله:

﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾

أنكم إذا كلمتموه وهو صامت فإياكم والعدول عما نهيتهم

(١٨) الشية والوشم: العلامة. (المجلة)

عنـه مـن رفع الصوت، بل عليكم أن لا تبلغـوا به الجهر الدائر بينكـم، وأن تتعمـدوا في مخاطبتـه القول البيـن المقرب من الهمس الـذي لا يضاهي الجهر، كما تكـون مخاطبة المهيب المعظم، عاملين بقوله عز شأنه:

﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾

وليـس الغـرض مـن رفـع الصـوت ولا الجهر مـا يقصد به الاسـتخفاف والاسـتهانة لأن ذلك كفْرٌ والمخاطبون مؤمنون، وإنما الغرض صوت هو في نفسـه والمسـموع من جرسـه غير مناسـب لما يهاب به العظمـاء، ويوقر الكبراء فيتكلف الغض منـه، ورده إلى حد يميل به إلى ما يسـتبين فيـه المأمور به من التعزير والتوقير.

ولـم يتنـاول النهي أيضًـا رفع الصـوت الذي لا يتـأذى به رسـول الله ﷺ وهو ما كان منهم في حرب، أو مجادلة معاند، أو إرهاب عدو، فلم ينهوا عن الجهر مطلقًا حتى لا يسوغ لهم أن يكلمـوه إلا بالهمس والمخافتة، وإنما نهوا عن جهر مقيد بصفـة أعلى الجهر المنعوت بمماثلة ما قـد اعتادوه منه فيما بينهم، وهـو الخلو عن مراعاة أبهة النبـوة، وجلالة مقدارها، وانحطاط سائر الرتب وإن جلت عن رتبتها.

ومـن البداهـة أن هـذه الآيـات وأمثالهـا فـي تأديـب الأمة وتعليمها إنما جاءت بأسلوبها المعجز لتفخيم شأن النبي ﷺ

وإظهـار رفعة قدره المنيف، وسـمو منزلته ﷺ فوق كل منزلة أحـد من الخلق، وهي مسـوقة في مواضعها مـن القرآن الكريم لتعليم الأمة -أفرادًا وجماعـات- الأدب الأكمل مع النبي ﷺ فـي كل ما يتصـل بمخاطبته، والتحـدث إليـه، والإصغاء إلى حديثه، ومجالسته حتى يستشـعر المؤمن بقلبه وروحه وكافة إحساسـاته ومشاعره ما أوجبه الله تعالى من توقيره ﷺ توقيرًا يجلي رفيع قدره، وعظيم مقامه، ويظهر تشـريف الله تعالى له ﷺ بما ميزه به على سائر الخلق، وقد اتفق أهل العلم من أئمة أعـلام الأمة على أن حرمته ﷺ في حياته البرزخية كحرمته في حياته الدنيوية.

إسقاط ابن حجر الكلمات الجافية من كلام الرجل:

وقد أجاد ابن حجر فأحسن إذ أسقط ما نسب إلى الرجل من الكلمـات الجافية المتجهمة، واقتصـر على ذكر قوله لخالد: إن نبـي الله يقول لـك: «اقتل كل من قدرت عليـه» فقتل خالد سبعين، ثم اعتذر الرجل للنبي ﷺ فسكت عنه ﷺ ولم يذكر ابن حجر الكلمات المنسوبة للرجل في اعتذاره للنبي ﷺ وهي موضع النظر- التي أحسـن بإسـقاطها وعدم ذكرها، وكأن ابن حجر لمح ما فيها مما لا يليق من الجفوة، والتجهم فتركها.

وهذا مسـلك جزئي سـلكه ابـن حجر في كلامـه على هذا

الحديث، فأحسن إذ ترك من الكلام ما هو موضع المؤاخذة، ولكن كان يجب على الحافظ ابن حجر أن ينظر في الحديث نظرة شاملة، تبين صحة سنده، واستقامة متنه ومعناه وأسلوبه، ولا عليه أن ينصح بما هو الحق في صحة الحديث سندًا ومتنًا، لا سيما أن المعروف عن كافة الصحابة صادقي الإيمان التفخم بتعظيم رسول الله ﷺ وتوقيره إلى درجة تبلغ ذروة التقدير لشرفه ومقامه ورفعة منزلته، فإذا غلب التغضب أحد من لم يكن منهم قادرًا على مغالبة طبيعته فلا حرج على من يصرح بغلط من غلط، أو يبين أن الحديث لم تثبت صحته، ولا داعي لبذل الجهد وتحمل المشقة في تأويله تأويلًا معسفًا.

وإنما أطلنا النفس قليلًا في مناقشة ما جاء في هذا الحديث عند الطبراني- من أسلوب جاف متجهم وكلمات متغضبة نافرة في مخاطبته ﷺ مما يجافي ما يجب له صلوات الله عليه من توقير وتعظيم، وخفض جناح الرقة في الخطاب، لنذكر بما هو واجب على أمته أفرادًا وجماعات من رفيع الأدب والتفخيم لشأنه، ومحبته محبة تعلو على كل محبة، واتباعه اتباعًا يجعل هوى كل مؤمن تبعًا لما جاء به ﷺ في كل ما يثبت عنه من أحكام وآداب، وتربية، وسلوك اجتماعي يقوم على أكرم مكارم الأخلاق- لنلفت نظر المجتمع المسلم أينما كان منه فرد أو جماعة في أرض الله إلى أن المتحدثين عنه -صلوات الله

وسـلامه عليه- لا سيما شباب الإسلام- ينبغي أن يكونوا على بصيـرة وحذق بما يحوكـه الملحدون لهم من نسـج الميوعة والانحلال الخلقي، ليخرجوا هذا الشباب من إطار الإسلام إلى الانطلاق الذي يسـميه لهم الملحدون تحررًا، وهو في حقيقته انسلال عن الإسلام دون شعور، والله تعالى يقول:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾

(الروم: ٤٣، ٤٤)

قال الزمخشـري: وقوله «فعليه كفـره» كلمة جامعة لما لا غايـة وراءه مـن المضار؛ لأن من كان ضـاره كفره فقد أحاطت به كل مضرة.

ويقول تبارك وتعالى:

﴿ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾

(إبراهيم: ٨)

الراجح أن القتال بين جيش الفتح وأهل مكة وقع مرة واحدة:

والـذي يظهر لنا من التأمل في جموع الحوادث التي وقعت منذ وطئت قدم رسـول الله ﷺ أرض مكة فاتحًا أن القتال الذي

حـدث إنما هـو وقعة واحدة، هـي التي جمع فيهـا الموتورون من سـوابق الغزوات جمعاً من أوباش قريـش وأتباعها ليقاتلوا جيـش الفتح، وينقضوا أمان رسـول الله ﷺ لأهـل مكة عامة، وكان أسبق القواد المجاهدين دخولًا إلى مكة خالد بن الوليد، معه راية بني سـليم، فناوشه الأوباش وقادتهم، وكف خالد بن الوليد عن قتالهم ما اسـتطاع إطاعة لأمر رسـول الله ﷺ لعامة قواد جيش الفتح، إذ قال لهم: «أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم».

وقد أطمع هذا الحلم الكريم أولئك الموتورين وأوباشـهم، فركبهم الشـيطان وزين لهم نقض الأمان وإشـعال نار الحرب، وأرادوها موقعة فاصلة، وحملوا على جند خالد حملة مسعورة، وقتلـوا مـن جنده من قتلـوا، فكان لا بد له أن يدفع عن نفسـه وجنـده، فقاتل فلول الموتورين وأوباشـهم، فقتل منهم مقتلة عظيمـة، أذاقتهـم أوجـاع الغدر ونقـض عهد الأمـان، ورأى رسـول الله ﷺ بارقة السـيوف وهي تلمع، فقـال: «ما هذا؟ وقد نهيت عن القتال؟» فقال له بعض أصحابه: هذا خالد نظن أنه بدئ بالقتال، فكان لا بد له من أن يدفع عن نفسـه وجنده، فقاتلهم، فلما جاء خالد قال له رسول الله ﷺ «لم قاتلت؟ وقد نهيتك عن القتال؟» فقال خالد: هم بدأونا بالقتال وقد كففت يدي ما استطعت، فقال ﷺ «قضاء الله خير».

هـذا مجمـل مـا نظن أنـه وقـع، ولكن الـرواة أكثـروا من

الروايـات، وأدخلـوا في كل روايـة واقعة مما وصـل إليهم من واقعـة خالد، وجعلوهـا وقائع مسـتقلة أعطوها فـي رواياتهم قوائم الوقائع المتعـددة، ولم يثبت لنا من طريق صحيح وقوع معـارك إلا مـا كان من واقعـة خالد التي كانت أصـلًا لما تفرع عنهـا من الوقائـع في الروايـات المختلفـة حتى أوقفهـا فِرَارُ الموتورين وقادة الأوشـاب، وتجديد الأمان من رسـول الله ﷺ بعد استغاثة أبي سفيان به في قوله: «لا قريش بعد اليوم» فقال النبـي ﷺ «مـن دخل داره فهو آمن» وهـذا تجديد للأمان صاح بعده أبو سـفيان وحكيم بن حزام في قومهم: يا معشـر قريش، علام تقتلون أنفسـكم، من دخل داره فهو آمن، فأسـرع الفُرَّارُ إلـى البيوت يدخلونهـا ويغلقـون أبوابها دونهـم، ويطرحون السلاح في الطرقات.

منزل رسول الله ﷺ يوم الفتح الأعظم

وكان رسـول الله ﷺ ينـزل في قبـة ضربت لـه بالحجون، وقيل له ﷺ ألا تنزل منزلك من الشعب؟ فقال ﷺ «وهل ترك لنـا عقيل منـزلا» وكان عقيل بـن أبي طالب قبل أن يسـلم قد بـاع منزل النبي ﷺ ومنزل إخوتـه أولاد أبي طالب من الرجال والنسـاء التي كانت لهـم بمكة، فقيل لرسـول الله ﷺ فانزل فـي بعض بيـوت مكة، غير منازلك، فأبـى ﷺ وقال «لا أدخل البيـوت» وكان ﷺ يأتـي المسـجد لـكل صلاة مـن الحجون

وكان أبو رافع مولى العباس بن عبد المطلب قد ضرب له قبة بالمسجد من أدم، ومعه أم سلمة وميمونة، وذكر ميمونة هنا هو الغريب، فإنه ﷺ لم يبنِ بها إلا في الطريق بسرف.

وفي رواية للبخاري عن أبي هريرة من طريق أبي سلمة أنه ﷺ قال: «منزلنا إن شاء الله إذا فتح الله الخيف»، وفي رواية أخرى للبخاري أيضًا: «خيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر» والمقصود الإشارة إلى تحالف قريش الظالم الكفور وحصرهم بني هاشم والمطلب بشعب أبي طالب، وتعاهدهم أن لا يناكحوهم، ولا يبايعوهم كما فصلنا قصة هذا الحصار الفاجر الظلوم في موضعه من أحداث مكة قبل الهجرة.

وإنما اختار رسول الله ﷺ النزول في خيف بني كنانة يوم الفتح الأعظم، فتح البلد الأمين واستسلام أهلها، ودخولهم في الإسلام بين طائع قد تبين له الرشد من الغي، وبين كاره مكره، حاقد مرعوب مفزع يخاف على رأسه أن تزايل مكانها من عنقه- ليتذكر ﷺ ما كان من قريش من فجور، فقدت فيه مشاعر الإنسانية، وكفر شرس وطغيان وثني مجنون، وعنجهية جاهلية واستكبار مغرور، وظلم جهول، وإيذاء للمؤمنين، وليتمثل ﷺ ما بين يديه ﷺ من نعمة الله عليه وعلى أصحابه بإعزاز دينه وأهله، وإذلال الشرك وحزبه، فيزداد شكرًا لله تعالى على هذه النعمة العظمى، نعمة الفتح

الأعظم، فتح مكة بلد الله الحرام، وتطهر الكعبة المشركة من رجس الشرك ووضر الوثنية، وتمكنه ﷺ من دخول بلده المحرم التي جعلها الله حرمًا آمنًا للناس إلى يوم القيامة، ومعه أصحابه من المهاجرين والأنصار، ومن آمن معهم إخوة ترفرف فوق رءوسهم ألوية النصر، وتخفق بين أيديهم رايات الشكر، وهم يرون الذين أخرجوهم بالأمس أذلة مستسلمين يستأمنون رسول الله ﷺ فيؤمنهم، ويتلطف بهم رحمة لهم.

فرحة رسول الله ﷺ ومجتمعه المسلم بالفتح الأعظم

وقد كان ﷺ في دخوله مكة مفعم المشاعر، روي الإحساس، مشرق الوجدان، تبرق أساريره بالفرحة العظمى، وتضيء روحه المشرقة بنور تقدير نعمة الله عليه حق قدرها، وعرفانه فضل الله عليه وعلى مجتمعه المسلم ممثلًا في عامة أصحابه الذين آمنوا به وعزروه ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه فكانوا هم المفلحين، وكانت فرحة السابقين الأولين من المهاجرين خاصة- الذين رزحوا تحت آلام البلاء في البلد الحرام على أيدى طواغيت الشرك وطغاة الوثنية قبل هجرتهم فصبروا على ما أصابهم، واحتسبوه عند الله، وهم يرجون من الله النصر على أعدائهم من الكافرين- أعظم وأظهر.

وها هو ذا النصر يحفهم وهم يكتنفون راحلة رسول ﷺ وهو صلوات الله عليه فوقها متذللًا لله، متواضعًا لعظمته،

واضعًا رأسه تخشعًا وعرفانًا بحق شكر الله تعالى على ما أسداه إليه من نعمة الفتح العظمى.

ذكر محمد بن إسحق عن شيخه عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ لما انتهى إلى ذي طوى وقف على راحلته معتجرًا بشُقَّة بُرْدٍ حِبَرَة حمراء[١٩]، وأن رسول الله ﷺ ليضع رأسه تواضعًا لله تعالى حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى إن عثنونه- أي لحيته- ليكاد يمس واسطة الرحل. وفي حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه- عند البيهقي قال: دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح، وذقنه على رحله متخشعًا. وفي حديث ابن مسعود -رضي الله عنه- عند البيهقي أيضًا عن شيخه أبي عبد الله الحاكم قال: إن رجلًا كلم رسول الله ﷺ يوم الفتح فأخذته الرعدة، فقال له ﷺ «هَوِّن عليك، فإنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد».

العفو أعظم مواقف الشكر في الفتح:

وكان من أعظم مواقف الشكر لله تعالى في هذا المقام الحافل بالنعم، ونفحات العطايا الربانية موقفه ﷺ في الامتنان بإطلاق بقايا سيوف المسلمين من مشركي قريش الذين استبقاهم الهرب فرارًا منهزمين أمام كتائب المجاهدين في سوابق الغزوات، بعد أن صاروا أسارى في يده ﷺ وأيدي

(١٩) الحبرة: نوع من ثياب اليمن. (المجلة)

أصحابه، وهم يظنون كل الظن أنهم سيؤخذون بذنوبهم وجرائرهم، وقد نشف الدم في عروقهم، وتيبست أعصابهم، واصفرت جلودهم من شدة ما كانوا في من الخوف الهالع، والرعب المفزع خشية أن يقضي فيهم رسول الله ﷺ بما يستحقونه قضاء يقضي عليهم، أو يسمهم بميسم الذل الأبدي والهوان السرمدي، فيجعلهم عبيدًا وخولًا، يتقاسمهم جند الجهاد الفاتحين، لكنه ﷺ رحمهم ورق لهم، ووقف منهم جميعًا -إلا ما استثنى- موقف الشكر لله لتزلفهم، وهو ﷺ يقول لهم: «ماذا تظنون أني فاعل بكم؟» قالوا خيرًا، أخ كريم، وابن أخ كريم، وقد قدرت، فقال ﷺ «إني أقول لكم كما قال أخي يوسف: لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين» «اذهبوا فأنتم الطلقاء» فخرجوا من المسجد سراعًا، وكأنهم أشباح فارقتها أرواحها إلى بيوتهم أو كأنما نشروا من القبور.

هذا موقف من مواقف العفو الكريم والصفح الجميل لم يعرفه التاريخ، ولا عرف مثله في النبل والإحسان ومكارم الأخلاق، وقفه رسول الله ﷺ مع من أساءوا إليه، وكذبوه وسخروا منه، وآذوه بالقول والفعل حتى أخرجوه من بلده المحرم الآمن مهاجرًا في سبيل أداء رسالته ونشر هداها، وآذوا أصحابه وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم وعشائرهم.



أبو سفيان يقوده الشيطان ثم يتخلى عنه:

وإذا انضم إلى هذا الموقف النبيل الأكرم مواقفه ﷺ من أفراد دانت لهم قريش بزعامتها، وكان الشيطان قد اتخذهم مطايا لخبائثه وجرائره، فَهَمَّ بعضهم بقاصمة القواصم، مثل أبي سفيان بن حرب الذي آمن ثم كفر، ثم آمن، ثم ازداد كفرا إذ يوحي إليه الشيطان وهو آخذ بمقوده أكثر من مرة بعد أن آمن، وأمن معه ولأجله قومه، أن يجمع لمقاتلة رسول الله ﷺ ويأتي الخبر بما حدَّث به نفسه من نقض الأمان، فيخبره النبي ﷺ بما حدث به نفسه، وقال له: «إذن يخزيك الله» فيعفو عنه رسول الله ﷺ ويتركه، فلا يؤاخذه شكرًا لله تعالى.

وروى ابن سعد عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم أن رسول الله ﷺ خرج من الكعبة وأبو سفيان بن حرب جالس في المسجد، فقال أبو سفيان في نفسه: ما أدري بم يغلبنا محمد؟ فأتاه ﷺ فضرب صدره، وقال: «بالله نغلبك» فقال أبو سفيان: أشهد أنك رسول الله. وروى الحاكم وتلميذه البيهقي عن ابن عباس، وابن سعد عن أبي إسحاق السبيعي، قالوا: رأى أبو سفيان رسول الله ﷺ يمشي والناس يطئون على عقبه، فقال: لو عاودت هذا الرجل القتال؟ وجمعت له جمعًا، فجاء رسول الله ﷺ حتى ضرب في صدره، فقال: «إذن يخزيك الله» فقال أبو سفيان: أتوب إلى الله، وأستغفره. ما أيقنت أنك نبي إلا الساعة، إني كنت لأحدث نفسي بذلك.

قصة فضالة بن الملوح وهمه برسول الله ليغدر به:

وذكر ابن هشام والقسطلاني في مواهبه وابن كثير في بدايته وابن عبد البر في درره أن فضالة بن عمير بن الملوح هَمَّ بقتل رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت، فلما دنا منه قال له ﷺ «أفضالة؟» قال: نعم، فضالة يا رسول الله، قال له النبي ﷺ «ماذا كنت تحدث به نفسك؟» قال: لا شيء. كنت أذكر الله، فضحك ﷺ ثم قال له: «استغفر الله مما حدثت به نفسك» ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه، وكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما خلق الله شيئًا أحب إلى منه.

وقصة صفوان بن أمية بن خلف، وعكرمة بن أبي جهل معروفة، وهربهما خوفًا على نفسيهما منه ﷺ لما اقترفاه، لا سيما يوم الفتح إذ وشبوا أو شابًا من قريش وأتباعهم، وقاتلوا جنود الفتح فقتل منهم خالد بن الوليد مقتلة عظيمة، ومع ذلك فقد أرسل إليهما رسول الله ﷺ مؤمنًا لهما، فجاءا فأسلم عكرمة مكانه، واستأجل صفوان إسلامه شهرين، فأعطاه ﷺ أربعة أشهر.

وفي حديث عائشة -رضي الله عنها من طريق عروة عند ابن إسحاق قالت: خرج صفوان بن أمية يريد جدة ليركب منها إلى اليمن، فقال عمير بن وهب: يا نبي الله إن صفوان بن أمية سيد قومه، قد خرج هاربًا منك ليقذف نفسه في البحر، فأمنه

يا رسـول الله صلى الله عليك ، فقال ﷺ «هو آمن» فقال عمير : يا رسول الله فأعطني آية يعرف بها أمانك ، فأعطاه ﷺ عمامته التـي دخل بها مكة ، فخـرج عمير بها حتى أدركه وهو يريد أن يركـب في البحر ، فقال عمير : يا صفوان فداك أبي وأمي ، الله ، الله فـي نفسـك أن تهلكها ، هـذا أمان من رسـول الله ﷺ وقد جئتـك به ، قال صفـوان : ويلك اغرب عني فـلا تكلمني ، قال عميـر : فداك أبي وأمي ، هو أفضل النـاس ، وأبر الناس ، وأحلم النـاس ، وخير الناس ، ابن عمك ، عزه عزك ، وشـرفه شـرفك ، وملكه ملكك ، قال صفوان : إني أخافه على نفسي ، قال عمير : هو أحلـم من ذلك وأكرم ، فرجع صفـوان مع عمير حتى وقف على رسـول الله ﷺ ، فقال صفـوان : إن هذا يزعم أنك أمنتني ، قـال ﷺ «صدق» قال صفوان : فاجعلني بالخيار فيه شـهرين ، فقال ﷺ «أنت بالخيار أربعة أشهر» .

قصة عتاب بن أسيد والحارث بن هشام وأبي سفيان:

وقصة أبي سفيان ، وعتاب بن أسيد ، وأخيه خالد بن أسيد ، والحارث ابن هشـام ، وهم جلوس بفناء الكعبة إذ حانت صلاة الظهـر ، فأمر رسـول الله ﷺ بلالًا أن يؤذن فـوق الكعبة ، فقال عتاب وخالد بن أسـيد : لقد أكرم الله أسـيدًا أن لا يسـمع هذا فيغيظـه ، وقال الحارث : أما والله لو أعلـم أنه محق لاتبعته ، إن يكـن الله يكره هذا فسـيغيره ، وقـال أبو سـفيان : لو تكلمت

لأخبرت عني هذه الحصى، فخرج عليهم رسول الله ﷺ وقال لهم: «قد علمت الذي قلتم» وأخبرهم بقول كل واحد منهم، فأسلم الحارث وعتاب، وقالا: نشهد أنك رسول الله، ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول أخبرك، وقبل ﷺ إسلام من أسلم ولم يؤاخذ من تأخر بإسلامه.

وهكذا كان رسول الله ﷺ في قمة الشكر، عفوًا كريمًا، صفوحًا محسنًا، حكيمًا، صبورًا، رءوفًا، رحيمًا، جامعًا لمكارم الأخلاق وأحسن محاسن الشيم كما وصفه الله تعالى بقوله:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

(القلم: ٤)

قصة ضن الأنصار برسول الله ﷺ أن يفارقهم إلى غيرهم

ذكر ابن هشام عن مرسل يحيى بن سعيد أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة، وظهرت عليه مظاهر الأنس بمشاعرها ومتعبداتها، أُنس المشوق إلى حبيب غاب عنه ثم عاد إليه، تخوَّف الأنصار أن يكون هذا الأنس بمواقف العبودية في مشاعرها رغبة عند رسول الله ﷺ في إقامته بمكة، بلده، وأنس قلبه وفيها عشيرته وقومه الأدنون، فقال بعضهم لبعض: أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها أم يرجع إلينا؟

وإنمـا قال الأنصار ذلك حبًا في رسـول الله ﷺ وضنا به أن تكـون إقامته بينهم سـرمدية لا يفارقهـم، ولا يفارقونه، تعلقًا بـه ﷺ وحرصًا عليه أن يظـل موضع اختصاصهم به في الإقامة بينهم لا يشاركهم فيه غيرهم.

وقـد حفزهم على هذا الظن ما رأوه منه ﷺ من مزيد الأنس بالمشـاعر والشـوق إلى مطالعة أسـرار العبودية في مجاليها، بكثـرة ذكـر الله تعالـى والدعـاء المتضـرع في ظل نسـمات جودها، استنزالًا لرحمات الله في معالمها، وكان ﷺ حين قال الأنصـار ذلك قد علا من الصفا حتى يـرى البيت، فرفع يديه، وجعل يحمد الله ويذكره ويدعو بما شاء الله أن يدعو، متضرعًا متخشعًا، والأنصار تحته في سفح الصفا.

فلمـا فـرغ ﷺ من دعائه أخبـره الوحي بما قالـوا رأفة بهم ليمسـح عـن أفئدتهم ما مسـها من شـعور الألـم والحزن على مفارقـة رسـول الله ﷺ وحظوة غيرهم بقربه، وعيشـه بينهم، فالتفت إليهم ﷺ وقال لهم: «ماذا قلتم؟»

قالوا- اسـتحياء من مواجهتـه ﷺ بما هجس في خواطرهم حياله، وحرصًا على وجوده بينهم- : لا شيء، فلم يزل يتلطف بهم حتى أخبروه بما قالوا، فقال ﷺ ليطمئن أفئدتهم الوالهة، ويثلج صدورهم بإخباره أنه باق لهم، وسـيعيش بينهم: «معاذ الله، المحيا محياكم، والممات مماتكم».

رواية لا ينفتح لها القلب إلا بنوع من التأويل والاعتذار

قال الزرقاني: وهذا المرسل صح بأتم منه في مسلم وأحمد وغيرهما عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أنه ﷺ لما فرغ من طوافه أتى الصفا، فعلى حتى يرى البيت، فرفع يديه وجعل يحمد الله تعالى ويذكره، ويدعو بما شاء الله أن يدعو، والأنصار تحته، فقال بعضهم لبعض: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته.

قال أبوهريرة: وجاء الوحي، وكان إذا جاء لا يخفى علينا، فليس أحد من الناس يرفع طرفه إليه، فلما قضى الوحي قال رسول الله ﷺ «يا معشر الأنصار» قالوا: لبيك يا رسول الله، قال صلوات الله عليه: «قلتم أما الرجل فأدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته» قالوا: قلنا ذلك يا رسول الله، قال ﷺ «فما اسمي إذن؟ كلا، إني عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم، المحيا محياكم والممات مماتكم» فأقبلوا إليه يبكون، ويقولون: والله يا رسول الله ما قلنا الذي قلنا إلا الضن بالله وبرسوله، فقال لهم ﷺ «فإن الله ورسوله يعذرانكم ويصدقانكم».

بحث وتحقيق حول هذه الرواية التي صحح العلماء سندها

وقول هذه الرواية التي صححها الزرقاني، وهي كما قال من رواية مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده، وغيرهما من

الرواة عن الأنصار أنهم قالوا : أما الرجل – يعنون سيد المرسلين وخاتم النبيين محمدًا ﷺ فقد أدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته – أسلوب لا يستقيم مع ما عرف عن الأنصار من رفيع الأدب النفسي، والأدب التعبيري، خاصة مع رسول الله ﷺ في وصفه، والتحدث إليه ومخاطبته.

ولهذا قال لهم صلوات الله عليه بعد أن أخبرهم بأنهم قالوا هذا القول، واعترفوا – كما تقول الرواية – وقالوا، قلنا يا رسول الله: «فما اسمى إذا؟ كلا، إني عبد الله ورسوله» وهذا استفهام إنكاري مؤيد بحرف الزجر «كلا» يُقصد به أن قولهم عن رسول الله «أما الرجل» لا يوائم ما عرف عنهم من شدة حبهم له ﷺ، وتوقيره وتعظيمه أخذا بما أدب الله به المؤمنين من رفيع الأدب في التحدث عن رسول الله ﷺ، والأنصار خير المؤمنين بعد السابقين من المهاجرين.

وذكر هذا الاستفهام، واتباعه بحرف الزجر «كلا» دون ذكر جواب عنه يحتمل أن يكون بعضهم أجاب عن الاستفهام، فذكر اسم رسول الله ﷺ الذي كان ينادى به قبل بعثته «محمد بن عبد الله» فرد بقوله: «كلا» ومعناه الزجر أن يكون هذا هو اسمه بعد رسالته في كل ما يتحدث به عنه مما يدخل في إطار رسالته، وإنما اسمه الذي يجب أن يتحدث به عنه في مقام رسالته: أنه عبد الله ورسوله.

ثـم أخبرهـم عن خصيصة اسـمه بعد الرسـالة بأنـه هو الذي جمعـه ﷺ بهم، ولأجله هاجـر إلى الله وإليهم، تـاركًا أرضه إلى أرضهـم وبلده إلـى بلدهم، وعشـيرته إلى الحياة بينهـم، فآووه ونصـروه على من كذبـه وأخرجه من بلده، وحاربـه، ووقف أمام رسالته معوقًا مسيرتها إلى الآفاق، فحاربوا أعداءه وأعداء رسالته، وكانوا جيش الفتح الأعظم بعد أن كانوا كتائب النصر المؤزر.

ويحتمـل أسـلوب الـكلام أنهم سـكتوا، فلـم يجيبوا عن استفهامه ﷺ استحياء منه لما رأوا من إنكاره عليهم أن يقولوا عنه: «أما الرجل»، ويرشح ذلك أنه ﷺ أتبع استفهامه بحرف الزجـر فيكـون الإنكار المفهـوم مـن الاسـتفهام منصبًا على قولهم: «أما الرجل»، أي لا ينبغي لكم في شـرعة رفيعة الأدب التحدث عن نبيكم ورسولكم أن تقولوا عنه: «أما الرجل» وهو اسم يعم الأولين والآخرين من الناس.

ولهذا قال صلوات الله عليـه معلمًا ومؤدبًا: «كلا، إني عبد الله ورسـوله» ثـم بين لهم أن هذا الاسـم الخاص بالرسـالة هو الـذي هاجر بـه إلى الله وإليهـم، فهو العـروة الإيمانية الوثقى بينـي وبينكم خاصـة وبيني وبين المؤمنيـن عامة، ثم رحمهم بعد هذا الدرس التربوي، فأقر أعينهم بأنه لن يفارقهم، فمحياه محياهم، ومماته مماتهم، وأرضهم أرضه، وبلدهم بلده، وهي مثـواه الأبدي، يحيا فيه معهم، وإذا فارقهم إلى الرفيق الأعلى،

فحياته البرزخية فيها حتى يبعث الله العالمين للجزاء.

وفي هذا الإخبار من البشـرى لهم ما أثلج صدورهم، واقتلع جـذور الظنون والأوهـام من أفئدتهم، وملأها بالسـكينة وبرد اليقين، وهذا التأويل أقرب مناسبة لمعاني الروايات.

رأي الزرقاني في الجمع بين الروايتين وبيان وجه هذا الرأي

وقد أشـار الزرقاني إلى ما يمكن الجمـع به بين الروايتين، ولكنـه لم يؤثره، وإنمـا ذكره احتمالًا فقـال: وكأن ذلك وقع لطائفتين، فبادر النبي ﷺ بإخبار إحداهما، فقال لهم: «قلتم» لجزمهـا بالقـول، وتلطف بالأخرى لكونها لـم تجزم، فقالت أتـرون رسـول الله ﷺ إذ فتـح الله عليـه مكة بلده يقيـم بها أم يرجع إلينا.

ومعنـى كلام الزرقاني أن الأنصـار -رضي الله عنهم لما رأوا مظاهر الأنس وولـه الشوق تغمر مشاعر رسول الله ، ورأوا إشراق الغبطة وبارقات السرور بفضل الله عليه وعلى جميع أمته تبرق أسـاريره داخلهـم الظن، حرصًا على رسـول الله ﷺ، وضنًا به أن يشـركهم غيرهم فيما خصوا به مـن إقامته بينهم - فأفضى بعضهم إلى بعض بما دار في أخلادهم، وكان المتحدثون منهم طائفتيـن، فطائفة قال بعضهـا لبعض: أما الرجـل فقد أدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته.

ولعـل هـذه الطائفة ممـن جمح بها الحـرص على بقاء رسـول الله ﷺ بينهـم، والضن به أن يفارقهـم إلى غيرهم، فتفوهـوا بهذه الكلمة «أما الرجل» فـي ضمن ما قالوه، ولم يكونـوا من ذوي القدمة في الإسـلام، الراسـخين في ضبط ألسـنتهم المعبـرة عما فـي أنفسـهم مـن الحـرص على رسول الله ﷺ والحب والشح به أن يشاركهم فيه غيرهم.

ولهـذا كان خطابه صلوات الله عليه مـع هذه الطائفة جازمًا حاسـمًا، فقـال لهم: قلتم أمـا الرجل فأدركته رغبـة في بلده، ورأفة على عشـيرته، فقالوا: قلنا ذلك يا رسول الله، فأخذ ﷺ يذكرهـم بما كان ينبغي عليهم مـن وزن الكلمات المعبرة عن خوالجهم لأنهم أسـوة يتأسـى بهـم غيرهم، فقـال لهم: «فما اسـمي إذن، إني عبد الله ورسـوله» فأقبلوا إليه يبكون، يقولون معتذريـن عمـا انزلقت به ألسـنتهم: والله يا رسـول الله ما قلنا الذي قلنا إلا الضن بالله ورسـوله، فقـال صلوات الله عليه: «إن الله تعالى ورسوله يعذرانكم ويصدقانكم».

أما الطائفة الثانية الذين قالوا ظنًا: أترون أن رسـول الله ﷺ إذ فتـح الله عليه أرضـه وبلده يقيم أم يرجع إلينا؟ فهؤلاء كانوا من الراسـخين الذين اسـتلجموا ألسـنتهم بحكمات اليقين، واعتصمـوا برفيـع الأدب فـي التحـدث عـن رسـول الله ﷺ، فأبرزوا ما دار في دخائل أفئدتهم المفعمة بحب رسول الله ﷺ

الضنينة به أن يفارقهم إلى غيرهم.

أولًا - بأسلوب الاستفهام، كأن كل واحد منهم يقول لأصحابه: هل عندكم من علم بما عند رسول الله ﷺ، من عزيمة، هل يقيم ببلده بين قومه وعشيرته بعد أن فتح الله عليه مكة، أو يرجع إلينا؟

ولا شك أن هذه الظنون تثيرها لهفة الحب، ولكنهم لم يجزموا؛ لأنه لم تبد لهم بادرة قولية أو فعلية تدل على ما عزم عليه رسول الله ﷺ.

وثانيًا - أنهم أبرزوا دخائل أنفسهم بأسلوب الظن ولم يجزموا بشيء، في أسلوب من الأدب الرفيع الذي أُدِّب به المؤمنون، فقالوا: أترون أن رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها أم يرجع إلينا؟

ولهذا تلطف ﷺ مع هؤلاء، فلم يقل لهم كما قال للطائفة الأولى: «قلتم أما الرجل» وهذا لحسن تصرفهم وجمال تعبيرهم عن خوالجهم، فقال لهم: «ماذا قلتم؟» فلم يخبرهم بما قالوا بأسلوب الجزم، وهو قد أعلم عن طريق الوحي بما قالوا.

وفي استفهامه ﷺ منهم عما قالوا وهو به عليم زيادة في التلطف بهم ليكون في ذلك درس تربوي، لاسيما للذين قالوا: أما الرجل ليعلمهم عن طريق أخوتهم أدب التعبير في التحدث عنه ﷺ.

ولهذا نفى الراسخون في ردهم على رسول الله ﷺ إذ قال لهم «ماذا قلتم»، فقالوا: لا شيء، أي لم نقل شيئًا جزمنا به واعتقدناه في قلوبنا، ولكنا ظننا ظنًا عبرنا عنه بما علمته يا رسول الله، رجاء أن يرحمنا الله ببقائك معنا حتى لا نرجع إلى ديارنا إلا ورسول الله ﷺ إمامنا وقائدنا محاطًا بحبنا وتعظيمنا لمقامه المنيف، وتطمئن قلوبنا ونعلم أنا صدقنا ما عاهدنا الله عليه من الحب لله ولرسوله ﷺ.

التوسع في تحليل كلام الزرقاني نقله إلى حل الإشكال في التعبير بقول من قال «أما الرجل»

ونحن نشعر أنا توسعنا قليلًا في بيان معنى كلام الزرقاني لندفع به إشكال الاختلاف بين الطائفتين اللتين فرض الزرقاني أن الكلام كان منهما، واختلف لاختلافه رد رسول الله ﷺ عليهما، مع التماس العذر للذين جمحت بهم العبارة، فقالوا: «أما الرجل» مدفوعين بحماسة الحب لرسول الله ﷺ والضن به أن يرجعوا إلى دارهم وليس فيهم صلوات الله عليه.

وإن كان الزرقاني ذكر هذا الكلام ليدفع به إشكال اختلاف الروايتين في كلام الطائفتين وقول رسول الله ﷺ لهم: «قلتم أما الرجل» مخبرًا لهم بما قالوا بأسلوب الجزم فأقروا بما قالوا واعتذروا، وجاءوه يبكون، فعذَرَهم وصدقهم، والتزموا ما ألزمهم الله من الأدب الرفيع تعظيمًا له ﷺ.

ورواية قالت إنه ﷺ سـألهم: «ماذا قلتم؟» فاسـتحيوا منه ﷺ أن يصارحوه بما قالوا، فلم يزل يتلطف بهم حتى اعترفوا بما قالوا.

فـأراد الزرقاني أن يجمـع بين هذيـن الاختلافين في كلام الأنصـار، وأن يوفـق بين كلام رسـول الله ﷺ فـي رده عليهم حسـبما جاء في الروايتيـن، فذكر ما ظهر له مـن احتمال أن الكلام والرد عليه وقع من الطائفتين على نهج ما ذكرناه.

وقـد رأينا أن ما ذكره الزرقانـي احتمالًا هو الأقرب للجمع بين الاختلافين، وهو أسـلم من رد الروايـات عند الاختلاف، وأنه كلام حسـن؛ لأنه إذ يدفع اختـلاف الروايتين يدفع أيضًا مـا جاء في إحداهما من إشـكال في التعبيـر، يجافي الواجب فـي ملاحظـة رفيـع الأدب عنـد التحدث عن رسـول الله ﷺ، ويخرجـه أن يكـون صدر مـن الأنصار كلهم، وذلـك في قول إحدى الطائفتيـن، بعضهم لبعض: «أما الرجـل فأدركته رغبة في بلده» فسـيرناه إلى هذا الإشكال لندفعه به، وهذا من قبيل التوسع في معنى الكلام ومده إلى أن يزيل إشكال الروايات في طـرف آخر غير طرفه الذي سـبق له، ولعل هذا الحديث دخله ما يدخل رواية الحديث بالمعنى من قصور في التعبير، والعلم عند الله.

مظاهر فرحة المؤمنين بدخول مكة يوم الفتح الأعظم

دخلت كتائب المجاهدين مكة يوم الفتح الأعظم، يقدمهم قادتهم، وحاملو ألويتهم وراياتهم من حيث أمرهم رسول الله ﷺ، وركزت راية رسول الله التي كان يحملها الزبير بن العوام بالحجون بأمره حيث نزل رسول الله ﷺ في قبة ضربت له، وأبى لحكمة سياسية أن ينزل في منزله الذي كان له قبل أن يهاجر لأن عقيل بن أبي طالب باعه فيما باع، كما أبى ﷺ أن ينزل في بيت أحد، وقال: «لا أنزل في البيوت» ثم انتقل إلي خيف بني كنانة، حيث تقاسم سدنة الكفر وأحلاس الوثنية، على أظلم حلف تحالفوه ضد بني هاشم والمطلب.

وقد حاول بعض بقايا الموتورين من قريش أن يقاتلوا كتائب الجهاد وهم داخلون حيث يفاجئونهم في طرقات مكة التي تجمَّع فيها أوشابهم (٢٠)، ومن تبعهم من القبائل، وقالوا: نقدم هؤلاء فإن كان لهم شيء كنا معهم وإن لم يكن معهم أجبنا محمدًا - إلى ما يطلبه منا، وكان أول من قاتلوه من الكتائب كتيبة بني سليم، وقائدها خالد بن الوليد، فكف عنهم يده استجابة لأمر رسول الله ﷺ أن لا يقاتل قوادُ الكتائب إلا إذا قوتلوا ليكونوا مدافعين، ولكن الموتورين من زعماء قريش طمعوا في غير مطمع، فقاتلوا خالدًا وقتلوا من رجاله رجلًا، فقاتلهم خالد، وضربهم ضربة حاسمة، بددت جمعهم وشتت

(٢٠) الأوشاب: الأخلاط. (المجلة)

شملهم وفرقت جموعهم.

ولما فرغت كتائب الجهاد من هذه المناوشات التي لم تكن تغني عن قريش شيئًا راجعوا أنفسهم، وطلبوا تجديد الأمان، فجدده لهم رسول الله ﷺ، وأسرعوا إلى بيوتهم يغلقون أبوابها عليهم، وطرحوا أسلحتهم في الطرقات فأخذها المجاهدون.

مظاهر فرحة المسلمين يوم دخولهم مكة فاتحين:

وكان المجاهدون يوم دخولهم مكة مجهدين متعبين من طول ما قطعوا من الأرض مسافرين صائمين قبل أن يرخص لهم في الفطر، يحملون أثقالهم الحربية، فكانوا في أشد الحاجة إلى الراحة، فاتخذوا من يوم دخولهم مكة فاتحين يوم فرحة وراحة، فانطلقوا بعد أن قضوا على ما صادفهم من المناوشات في طرقات مكة ومشاعرها ومعالمها، يهللون ويكبرون ويحمدون الله على عظيم فضله ويسبحونه شاكرين إنعامه على رسول الله ﷺ، وعلى أمته، يهنئ بعضهم بعضًا، ويكثرون من الطواف بالبيت المشرف تعبدًا لله تعالى، وشوقًا إلى هذه المعالم التعبدية والمشاعر الإيمانية التي فارقوها ملجئين.

روى البيهقي عن سعيد بن المسيب قال: لما كان ليلة دخل الناس مكة، ليلة الفتح، لم يزالوا في تكبير وتهليل وطواف بالبيت حتى أصبحوا.

وكأنهم -رضي الله عنهم- جعلوا يوم دخولهم البلد الحرام

لراحتهم وفرحتهم، فوسع لهم النبي ﷺ، وكان معهم سمحًا كريمًا، مقدرًا لما عانوه في سفرهم الطويل الشاق المضني، وهم صائمون في بعض أيام سيرهم، يحملون على كواهلهم ومراكبهم أثقال أهبتهم، وعدة الحرب لمن حاربهم، وأداة قتال من قاتلهم، فتركهم حتى يأخذوا شيئًا من راحة أبدانهم.

فلما أصبحوا من الغد رآهم ﷺ قد استجموا وأخذوا من الراحة قسطًا أعاد إليهم أنفاسهم هادئة ونفوسهم مطمئنة، وكان ﷺ قد قضى يومه وليلته في تطهير البيت من أرجاس الوثنية، فلم يزل بالأصنام تكسيرًا حتى قضى عليها، ثم دخل البيت فمكث فيه نهارًا طويلًا، وتجمع أصحابه ينتظرون خروجه فخرج إليهم، وكان قد انضم إليهم من ضوى لجمعهم ممن آمن من قريش، بعد أن اطمأنوا إلى تجديد أمان رسول الله ﷺ إثر صرخة فزع من أبي سفيان بن حرب، وهو يرى موقف خالد بن الوليد من أوباش قريش: لقد أبيحت خضراء قريش، لا قريش بعد اليوم.

ووقف ﷺ على درج البيت خطيبًا في الناس، فخطبهم خطبة شاملة جامعة لكثير من الأحكام التشريعية، والحكم الاجتماعية، والآداب الخلقية، والمواعظ التربوية.

غزوة الفتح الأعظم

لـم تكن غزوة مكة المشـرفة غزوة قتال كمـا كانت غزوة (بـدر) و(أحد)، ولكنها كانت غزوة مسـالمة ووفاء بالعهود والمواثيق، وروابـط الحياة الاجتماعية التي يعظمها المجتمع العربي قبل الإسـلام، ولا ينكرها الإسلام دينًا وشريعة ونظامًا اجتماعيًا في علاقات الأفراد والجماعات، بعيدة عن العصبيات القومية الظالمة، والأعراف الجاهلية الطاغية.

وكان مظهر السلم والمسالمة والوفاء بالنسبة لتأديب العدو هـو إثارة الرعب بإظهار قوة الكتائب المسـلمة في قلوب بقايا طواغيت الوثنية الفاجرة، ليرتدعـوا عن عنجهيتهم المغرورة بما تملك مـن مآثر الجاهلية الجاهلة واسـتكبارهم في الأرض بغيـر الحق، وأما بالنسـبة لمن لم تنغلق قلوبهـم دون الإيمان بأبـواب الفجـور الوثنـي، فتتجلى مظاهـر الوفاء والمسـالمة فـي مكارم العفـو والإحسـان الذي غمـر به النبـي ﷺ هؤلاء المتأرجحين بين الصد والقبول حتى فاءوا إلى الإيمان.

ولهـذا كانـت هذه الغزوة علـى غير أوضاع الغـزوات التي سـبقتها فـي القـوة المادية والتأهـب بعناصرها وأسـبابها من الرجـال والسـلاح، والبدء بالهجـوم، وغزو الأعـداء في عقر دارهم، وأخذهم ضغطة لكسـر شـوكتهم، ورعبلة ما بقي لهم مـن مظاهر القوة المادية[٢١]، التي كانت عمادهم في حروبهم الجاهلية وتراثهم القتالي الظلوم المغلف بالبغي والعدوان.

---

(٢١) رعبلَ اللحمَ: مزقه وقطعه قطعا صغارا. (المجلة)

كثافة جيش الفتح واكتمال عدته:

وقد كان الجيش الذي زحف به رسول الله ﷺ عليهم - لتأديبهم على ما أقدموا عليه واقترفوا إثمه من فجور الغدر ونقض العهد والعبث بالمواثيق، وهم في ديارهم غافلون، يسترقون الخيانة، ويتخونون الغدر لمساعدة حلفائهم البكريين على حلفاء النبي ﷺ الخزاعيين - جيشًا عرمرمًا، وحشدًا كثيفًا من كتائب الأبطال المجاهدين، لم يعرف أنه اجتمع للمجتمع المسلم مثله عددًا وعدة قبل هذه الغزوة المباركة.

وقد قدرت الروايات عدد هذا الجيش الزاحف بقيادة رسول الله ﷺ على مكة - شرفها الله - لفتحها وإقرار الإسلام بها، وتنقيتها من بثور الوثنيات وتطهيرها من أوضار الشرك وأرجاسه، وردها حرمًا آمنا كما خلقها الله يوم خلق السموات والأرض طاهرة مطهرة لا يعبد فيها إلا الله تعالى - بعشرة آلاف من المهاجرين والأنصار، ومن انضم إليهم من القبائل التي ضربت أطناب منازلها حول المدينة المنورة مثل بني سليم، وغفار، وأسلم، وأشجع، ومزينة وجهينة، وهذه رواية الجمهور.

وفي مرسل عروة عند ابن عائذ أن عدد من كان مع رسول الله ﷺ بلغ اثني عشر ألفًا، وهو مذكور في إكليل الحاكم، وشرف المصطفى للنيسابوري.

وقد جمع بين الروايتين ابن حجر فقال: إن العشرة آلاف خرج بها ﷺ معه من المدينة، ثم تلاحق به ألفان من القبائل التي كانت منازلها حول المدينة، ومع توافر هذه القوة المادية البالغة في عددها وعدتها الحربية قدرًا لم يكن متوافرًا مثله أو قريبًا منه للمجتمع المسلم في غزواته قبل هذه الغزوة المباركة - كما لم يجتمع مثله أو قريب منه لأعداء الإسلام سوى ما كان في غزوة الخندق حين جمعهم خبثاء اليهود من أشتات القبائل الحائرة المتربصة الذين لا تحزمهم عروة، ولا يربطهم هدف - لم يكن يظهر على مشاعر النبي ﷺ شيء من سمات الانتقام من أعدائه الذين كذبوه وأخرجوه من بلده، وهاجموه في مهجره بروح انتقامية وحقد يشوي أكبادهم، بل كانت تغلب عليه في حركاته وتصرفاته عواطف الرحمة والعفو، والصفح الجميل، فقد أمر ﷺ كتائبه المجاهدة بعدم القتال، وهو على مشارف مكة، بعد أن وضعهم في مواضعهم، وبين لهم مسالك دخولهم مكة، اتقاء لما يحدث من شدة التزاحم بين الكتائب.

تلطف بأبي سفيان يحد من حدة سعد بن عبادة:

ومن أجلّ وأعظم مظاهر العطف والرحمة - التي تجلّت في تصرفاته الكريمة وهو داخل مكة مظفرًا - موقفه مع

سـعد بن عبادة، وهو حامل لواء الأنصار، فقد مرّ سـعد بأبي سـفيان بن حرب، فقال له: يا أبا سفيان اليوم يوم الملحمة، اليوم تسـتحل الحرمة، فشكى ذلك أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ، فأشكاه النبي ﷺ وقال له ليستل سخائم صدره ويذيب كفـره وعناده: «بـل هذا يوم تعظـم فيه الكعبـة» وأمر براية الأنصار أن تؤخذ من سـعد بن عبادة، وتدفع إلى ابنه قيس بن سعد، وهذا من أحكم التصرفات للقيادة الحازمة.

وفي رواية أن امرأة من قريش عارضت رسول الله ﷺ، وأنشدته أبياتًا من الشعر تستعطفه، وتشكو إليه ما قال سعد، قالت:

يا نبي الهـدى إليك لجا حَيّ
قريـش ولات حيـن لجـاء

حين ضاقت عليهم سعة الأر
ض وعاداهـم إلـه السـماء

والتقت حلقتا البطان على القو
م ونـودوا بالصيلـم الصلعاء

أن سـعدًا يريد قاصمة الظهـ
ـر بأهل الحجـون والبطحاء

خزرجي لو يستطيع من الغيـ
ـظ رمانـا بالنسـر والعـوّاء

فانهينــه فإنــه الأســد الأســـ
ـــود والليث والـغ في الدماء

فلئــن أقحــم اللــواء ونــادى
يا حمــاة اللــواء أهـل اللواء

لتكونــن بالبطــاح قريــش
بقعة القــاع في أكـف الإماء

إنــه مُصلَـتٌ يريــد لهــا الرأ
ي صمــوت كالحيــة الصماء

قــال ابــن كثير : فلما ســمع رســول الله ﷺ هذا الشــعر دخلته رحمة بهم، ورأفة لهم، وأمر بالراية فأخذت من ســعد بن عبادة، ودفعت إلى ابنه قيس ابن سعد، فكأنها لم تخرج عن يد سعد.

رأي السهيلي في نسبة هذا الشعر:

ويقــول الســهيلي في الروض: وزاد غير ابن إســحاق في الخبر أن ضرار بن الخطاب الفهري قال يومئذ شعرًا - حين ســمع قول سعد - اســتعطف فيه النبي ﷺ على قريش وهو من أجود شعره، ثم ذكر السهيلي سبعة أبيات من هذا الشعر وأسقط منه بيتين.

والــذي يظهــر لنا صحــة رواية الســهيلي في نســبة هذه الأبيــات لضرار بن الخطاب، فهــو صاحبها وقائلها، ولكنه

أعطاها امرأة تنشدها على مسمع من رسول الله ﷺ، إما لأنها أدخل في الاستعطاف - قال ابن حجر في الفتح: وكأنه أرسل به المرأة لأنه أبلغ في المعاطفة عليهم.. أو لأن ضرارًا استحيا أن يقف بين يدي رسول الله ﷺ بأبياته على ما كان منه في جاهليته، أو لأنه تعزز بجاهليته أن يقف موقفًا استعطافيًا، يشعره بمرارة موقفه في ذلة الاستعطاف.

وأجلّ من ذلك وأعظمه وأنبله ما كان منه ﷺ في مظاهر العفو عند القدرة في موقفه الكريم مع سائر أهل مكة، وقد صاروا جميعًا في قبضته بعد دخوله مكة، والرعب يتملكهم، والحيرة والدهش والذهول، وصغار الذلة تستولي على أفئدتهم، فأطلقهم ﷺ جميعًا، ولم يستثن إلا نفرًا قليلًا لم يكن في قلوبهم مكان للإيمان والهداية للإسلام، فأمر ﷺ بقتلهم ولو وجدوا في آمن مأمن، متعلقين بأستار الكعبة كابن خطل، والحارث بن نقيذ، ومقيس ابن صبابة، وفرتنا التي كانت تغني طواغيت الكفر بهجاء رسول الله ﷺ.

حملة زاجرة، ووفاء بعهد كريم:

وقد كان المظهر الغالب للوفاء في هذه الغزوة المباركة - كما قلنا - هو إثارة الرعب والرهبة وترسيخ الفزع والدهش في قلوب بقايا الطغاة من طواغيت الكفر الكفور والوثنية الطائحة المتهاوية، ليزدجروا عن شراستهم في عداوة

الإسلام، وحامل رسالته ﷺ والمؤمنين بهذه الرسالة الهادية الخالـدة، ويرتدعـوا عـن عنجهيتهم المخدوعـة بمواريث جاهليتهم التي درجوا في أوحال شرورها ومفاسدها، وشبوا وشابوا في حمأة رذائلها وفجورها.

ولـم يكن الهـدف الأصيـل للنبـي ﷺ من هـذه الغزوة المباركـة القتـل والقتال لشـفاء حزازات الصدور، وغسـل أحقادها بالدماء تسـفك في حرم الله الـذي مكنه لمتوطنيه حرمًـا آمنًا، تهـوي إليه الأفئدة من كل صـوب وحدب، حبًا وإخاء وتراحمًا.

وكانـت جذور هـذا الوفـاء الكريم الذي حـرك النفوس الكريمـة لهـذه الغزوة تمتـد فـي عروقها إلى أصـل كريم عرفت به نبعة رسول الله ﷺ التي انفرجت عن غصنه الروي بما فيه مـن الفضائل، وكرائم عروقها، وشـهرت به دوحة هذا البيت الهاشـمي الكريم الذي تسـامى به شرفه القديم والحديث مرتبطًا بشـرف الكعبة المعظمة التي كانت لهذا البيت الهاشمي دون سـائر بيوتات وقبائل العرب سدانتها وخدمـة زوارها وبـذل ما يلزمهـم من المكرمـات، ونصرة المظلـوم، وإراشـة الضعفـاء، وحمايـة المسـتضعفين في أنفسـهم وأموالهم وأعراضهم، وإطعام الطعام، وسقي الماء من كل شيء تحتاج إليه الوفود الوافدة إلى بلدهم، ولاسيما

في المواسم والأسواق والمحافل.

وقد بلغت تلك المكارم ذروة الفضل والشرف، واحتلت منها قمة النجدة والمروءة في حياة رجلها عبد المطلب بن هاشم جد محمد الذي ارتفع بمكارمه إلى أرفع مكان يشرف به إنسان في جاهلية العرب، وسار باسمه وشرفه في أكناف الجزيرة العربية وأرجائها، فشرق وغرب وأَتْهم وأنجد[٢٢]، حتى ضرب به المثل، وصار القرب منه منقبة من مناقب القبائل العربية، وحسبها عندهم أنها حليفة عبد المطلب بن هاشم سيد الحجاز، وسادن الكعبة المشرفة، ومن ثم كانت خزاعة إحدى كبريات القبائل العربية تعرف في جاهليتها بأنها حليفة عبد المطلب بن هاشم.

فزع خزاعة إلى النبي تستنصره على الغادرين:

لما غدرت قريش بعهد الحديبية ونقضته بالغدر والخيانة، وقاتلت خزاعة وقتلت منهم، لتعين تحت جنح الظلام حلفاءها البكريين على حلفاء رسول الله ﷺ الخزاعيين، فزعت خزاعة إلى رسول الله ﷺ تطلب منه نصرته لها ووفاءه بعهده وعهد جده عبد المطلب، وقدمت إليه كتاب عهد جده عبد المطلب، فقرأه عليه أبي بن كعب الأنصاري.

(٢٢) أتهم وأنجد: ذهب إلى تهامة ونجد. (المجلة)

ونـص هـذا الكتـاب - كما ذكـره الزرقاني - باسـمك اللهـم، هـذا حلف عبد المطلب بن هاشـم لخزاعـة إذ قدم عليه سـراتهم وأهل الرأي[٢٣]، غائبهم يقر بما قاضى عليه شـاهدهم، أن بيننـا وبينكم عهود الله وعقوده ما لا ينسـى أبدا، اليد واحدة، والنصر واحد، ما أشرف ثبير وثبت حراء ومـا بل بحر صوفة، ولا يزداد فيمـا بيننا وبينكـم إلا تجددًا أبد الدهر سرمدًا.

فأجابهـم النبـي ﷺ فقـال: «مـا أعرفنـي بحلفكم، وأنتم على ما أسـلمتم عليـه من الحلف، وكل حلف كان فـي الجاهليـة فلا يزيده الإِسـلام إلا شـدة، ولا حلف في الإِسلام».

قـال الزرقاني: والحلف المنهي عنه - أي في الإِسـلام - ما كان على الفتن والقتال والغارات، والذي قواه الإِسـلام ما كان على نصرة المظلوم، وصلة الأرحام والخير ونصرة الحق.

وقد حققنا فيما سبق مسألة الحلف في الجاهلية، والنهي عن إحداثه في الإِسـلام، لأن الشريعة الإِسلامية مغنية عنه، لا يحتاج إليه المسلمون وهم في ظلها، وذكرنا آراء العلماء وروايات الأحاديث في ذلك.

---

(٢٣) سراة القوم: سادتهم. (المجلة)

تنويه النبي ﷺ بحلف الفضول:

وقد تأثلت هذه المكرمة في البيت الهاشمي[٢٤]، وعلى دعائمها قام حلف الفضول، وهو حلف أسسه أو شارك في تأسيسه بعض عمومة النبي ﷺ، وكان من أشهرهم ذكرًا في القيام بتأسيس مبادئه الزبير بن عبد المطلب، عم رسول الله ﷺ.

وقد أدرك النبي ﷺ هذا الحلف قبل بعثته، وكان هذا الحلف يتخذ من دار عبد الله بن جدعان مقرًا له، وكان النبي ﷺ يحضره مع أعمامه، وتحدث عنه بعد بعثته فقال: «لقد أدركت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما يسرني أن لي به حمر النعم، ولو دعيت إليه في الإسلام لأجبت» (السنن الكبرى للبيهقي)، والمراد: ولو دعيت إلى القيام بتنفيذ مبادئه وتحقيق أهدافه لأجبت إلى ذلك، لأن مبادئ هذا الحلف وأهدافه منطوية تحت أصول وقواعد الشريعة التي جاء بها الإسلام في رسالته لإخراج الناس من ظلمات الجور والظلم إلى نور المساواة والعدل.

حزازات جاهلية يستغلها الغدر في سفك الدماء:

وقد كانت بين خزاعة وبني بكر حزازات جاهلية وأثؤر قديمة، وحروب ناشبة قبل الإسلام، فلما جاء الله بالإسلام هداية للناس، وبعث به خاتم أنبيائه محمدًا ﷺ رحمة للعالمين

---

(٢٤) تأثَّلتْ وتأصلت بمعنى واحد. (المجلة)

تشاغلت القبائل العربية، وفيهم خزاعة وبنو بكر بأحاديثه وحوادثه وأحداثه وقصصه عما كان بينهم من خصومات وحروب، ودام ذلك زمن الدعوة إلى توحيد الله بمكة، وأعواما من زمن الاستقرار بالمدينة المنورة، حتى كانت معاهدة الحديبية وهدنتها سنة ست من الهجرة بين رسول الله ﷺ ومجتمعه المسلم، وبين قريش في عتوها وكفرها، وكان من شروط تلك المعاهدة: أن من أحب أن يدخل في عهد محمد وعقده فعل، وأنه من أحب أن يدخل في عهد قريش وعقدها فعل، فوثبت خزاعة فقالوا: نحن ندخل في عهد محمد وعقده، ثم وثبت بنو بكر فقالوا: نحن ندخل مع قريش في عهدها وعقدها.

سخرية نوفل بن معاوية بوثنية قومه قبل أن يسلم:

ولما وقعت الهدنة وهدأ الناس - ومشى بعضهم إلى بعض مسلمهم وكافرهم، وأمن بعضهم بعضًا، وتبادلوا فيما بينهم المصالح والأحاديث والقصص، ووصلوا ما كان مقطوعًا، فمكثوا في تلك الهدنة نحو السبعة أو الثمانية عشر شهرًا - تحرك الثأر الجاهلي فيما بين خزاعة وبني بكر، واستثيرت الكوامن التي كانت تملأ صدور بني بكر حفيظة وغيظًا على خزاعة، وخرج نوفل بن معاوية الديلي في جمع من قومه بني نفاثة، وهم بطن من الديل، والديل بطن من بني بكر، وبيت نوفل ومن معه من قومه خزاعة على ماء لهم يقال له (الوتير)،

واستفاقت خزاعة من غفلتها ونشب بين الفريقين القتال حتى دخلوا الحرم وهم يُقتتلون، فقالت بنو بكر لقائدهم نوفل بن معاوية الديلي بلسان الشيطان يا نوفل، إنا قد أدخلناهم الحرم إلهك إلهك، يحذرونه بطش آلهتهم بهم إذا انتهك حرماتهم، فقال نوفل ساخرًا من قومه وجهالتهم وكفرهم وانحطاط وثنيتهم وتفاهة عقولهم: كلمة عظيمة، لا إله له.

ومعنى هذا الكلام الساخر الكفور المستهزئ بهم أن نوفلًا يعلم كغيره من أساطين الوثنية أن الأصنام التي اتخذها قومه من أحلاس الوثنية آلهة هي في الحقيقة حط من قدر العقل الإنساني، ولو كان هذا العقل مغرقًا في انحطاط جاهليته.

ثم وجه نوفل إلى قومه تهكمًا لاذعًا شديد الاستهزاء والسخرية بهم، فوصفهم ببلاهة التفكير، وعدم نظافة الأخلاق مما يلطخ المروءة الإنسانية، ويسوِّد وجه الفضيلة الاجتماعية فقال لهم: يا بني بكر أصيبوا ثأركم، فلعمري إنكم لتسرقون في الحرم، أفلا تصيبون ثأركم فيه؟ وهذا كلام لا يخرج إلا من عقل ماكر، يعلم أن قومه ليسوا على دين، ولا عقيدة لهم ولا مروءة عندهم، ولا يعرفون لمكارم الأخلاق مكانًا في مجتمعهم الوثني المتهافت، وأن هذه الآلهة التي يعظمونها لا تساوي ما يخرج من أحدهم، ولذلك وجه إليهم احتقاره وسخريته بعقولهم في قوله: إنكم لتسرقون في الحرم دون أن يكون لهذه الآلهة الباطلة أي وزن من الاحترام في

نفوسكم، فأي قدر لها ليترك من أجله الأخذ بالثأر وأنتم الذين تقترفون في الحرم كل فاحشة موبقة بين يدي هذه الآلهة ولا تخافونها، ولا تخشون بطشها بكم، فقولكم: إلهك إلهك، تحذير مما لا يحذر منه، وهي كلمة عظيمة يرعب بها من جهل حقيقتها من دهماء المفزعين برءوس الشياطين، وغوغاء البله المغفلين، أما ذوو الدهاء المتخابث الذين يعلمون ما آلهتهم فهم ملاحدة في كفرهم لا يدينون بدين، ولا يعتقدون أن لهم آلهة تمنعهم من الفجور والإفساد في الأرض في الحرم وفي غير الحرم، فلا أثر لتخويفه منها وتحذيره من ضررها، لأنها شيء لا يضر ولا ينفع فلا إله له منها، وإنما هي أنصاب منحوتة من رضف صخور الجبال(٢٥)، أقامها الذين يخدعون بها أنفسهم للعبث بالعقول.

غدر قريش ونقضها عهد الحديبية:

وفي فحمة أستار الظلام تسللت قريش يقدمها الموتورون إلى هذه المعركة الخائنة الغادرة، فأمدت حلفاءها البكريين بالسلاح والرجال، واشترك معهم في خفية من دامس الظلام بعض رجالاتها، ناقضة لعهد رسول الله ﷺ باقتحامهم أحد شروط هدنة الحديبية، متوهمين أنهم ينجون من أخذهم بجريمتهم التي استخفوا بها من الله الذي لا يعرفونه، وقال

(٢٥) الرضف: حجر محمي. (المجلة)

بعضهم لبعض في جهالة كافرة وكفر جهول: ما يعلم بنا محمد وهـذا الليل ومـا يرانا من أحـد، فأعانوا بني بكـر على خزاعة بالكراع والسلاح، وقاتلوهم معهم للضغن على رسول الله ﷺ.

وقـد ذكر الرواة بعض أسـماء رجال قريش الذين شـاركوا بنـي بكر في قتـال خزاعة، فذكروا منهم صفـوان بن أمية بن خلف، وشـيبة بن عثمان الطلحي، وسـهيل بـن عمرو، وهو الـذي تولى عقد الهدنة عن قريش، وحويطب بن عبد العزى، ومكرز بن حفص الذي وصفه رسـول الله ﷺ بالغدر والفجور عندمـا جاء لمفاوضة رسـول الله ﷺ على شـروط المعاهدة، وغـدره وفجوره مـن أوصافه منذ كان فـي جاهليته، فقد روي أنه جمـع حوله يوم الحديبية خمسـين رجلًا من شـراد القوم وشـرارهم وأراد أن يبيت بهم المسـلمين ـ كما رواه الواقدي ـ فتنبـه لـه حـرس المسـلمين، وكان على رأسـهم محمد بن مسـلمة، فأخذوهم إلى رسـول الله ﷺ فعفا عنهم وسـرحهم طلقاء، وانفلت مكرز هاربًا فلم يؤخذ فيمن أخذ، ولا شك أن هذا الصنيع من أشنع الفجور والغدر، ولم يثبت إسلام مكرز، ولـم يعرف أن أحدًا من الرواة عـده في الصحابة، والظاهر أنه مات مشركًا.

لا وجه لتعجب ابن حجر من وصف مكرز بالفجور:

فقول ابن حجر: ومازلـت متعجبًا من وصفه بالفجور، مع أنه

لم يقع منه في قصة الحديبية فجور، هو مما يتعجب منه لوجهين:

أولًا - أن وصف النبي ﷺ له بالفجور ورد مطلقًا، لم يقيد بالحديبية ولا بغيرها، وتعجب ابن حجر إنما انصب على أنه لم يقع من مكرز فجور في قصة الحديبية، ولا يُردّ العام بالخاص.

ثانيًا - أن حادثة تبييته المسلمين بخمسين رجلًا جمعهم حوله كانت في الحديبية، وقد ذكرها الواقدي ولم ينفها غيره، ولو نفيت في رواية غيره صراحة لكانت حجة على إبطال تعجب ابن حجر، لأن المثبت مقدم على النافي.

وقد ذكر ابن حجر قصة نقلها من مغازي الواقدي في غزوة (بدر) تثبت فجور مكرز وغدره منذ جاهليته، ثم قال ابن حجر: فكان مكرز معروفًا بالغدر.

ولما دخلت خزاعة الحرم، وتبعهم نوفل بن معاوية في قومه بني بكر يقتلون من أدركوا من خزاعة لجأت خزاعة إلى دار بديل بن ورقاء الخزاعي بمكة يحتمون فيها، حتى إذا أدركهم الصبح تسللت رجالات قريش في عماية الصبح إلى منازلهم، وهم يظنون أنهم لا يعرفون بغدرتهم، وأنها لا تبلغ لرسول الله ﷺ، بيد أنهم رعبوا رعبًا شديدًا، فقال سهيل بن عمرو لنوفل بن معاوية يريد صده عن تتبع خزاعة بالقتل وهم محصورون ليستأصل من بقي منهم: «قد رأيت الذي صنعنا بك وبأصحابك، وبمن قتلت من القوم، وأنت قد حصرتهم،

تريد قتل مـن بقي منهم، وهذا ما لا نطاوعك عليه فاتركهم»، فتركهم نوفل خشـية خذلان قريش له ووقوعه في شـر ما صنع من الغدر.

ندم قريش كان هلعًا من انتصار الرسول لحلفائه:

وقـد ندمت قريش علـى ما صنعوا وعرفوا أنـه نقض للعهد الـذي بينهـم وبين رسـول الله ﷺ، وتلاوموا على مـا كان من بعضهم، فجاء الحارث بن هشـام وعبد الله بن أبي ربيعة، وهما ممن لم يشهد الواقعة إلى صفوان بن أمية بن خلف، وحويطب بن عبـد العزى وسـهيل بن عمـرو، وكانوا ممن أشـعل نارها وتبعهـم مـن تبعهم من قريـش، فلاماهم على مـا صنعوا وقالا لهـم: إن بينكم وبين محمد مدة، وهـذا نقض لها، واجتمعت قريـش للتشـاور فيمـا يخرجهم من هـذا المأزق الغـادر الذي أدخلوا أنفسهم فيه.

قال الزرقاني: أخرج مسدد في مسنده والواقدي في مغازيه: أن قريشًـا ندمـت وقالت: محمد غازينا، فقال ابن أبي سـرح: لا يغزونكـم حتـى يخيركم فـي خصال كلها أهـون من غزوه، يرسـل إليكم أن دوا قتلى خزاعة، وهم ثلاثة وعشـرون قتيلًا، أو تتبرءوا من حلف بني نفاثة، أو ننبذ إليكم على سـواء فقال سـهيل بن عمرو: نبرأ من حلفهم أسهل، وقال شيبة بن عثمان الطلحي: ندي القتلى أهون، وقال قرظة بن عبد عمرو: لا ندي

ولا نبرأ، ولكننا ننبذ إليه على سواء.

وقال أبو سفيان بن حرب: ليس هذا بشيء، وما الرأي الأصوب إلا جحد هذا الأمر، أن تكون قريش دخلت في نقض عهد، أو قطع مدة، وأنه قطع قوم بغير رضًا منا ولا مشورة فما علينا؟ قالوا: هذا الرأي، ولا رأي غيره، وقبلوا جميعًا رأيه لزعامته في قريش وشهرته بالمكر والدهاء، وكان هو البقية الباقية في قريش من ذوي رأيها، وأصحاب لدد العداوة للإسلام وأهله ودعوته وحامل أمانة رسالته محمد ﷺ.

وانتهت المعركة بين خزاعة وبني بكر ومن ساندهم وأمدهم بالسلاح وشاركهم من قريش في قتال خزاعة، فخرج عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين رجلًا من خزاعة فقدموا على رسول الله ﷺ بالمدينة، يطلبون منه الوفاء بعهده معهم الذي دخلت فيه خزاعة معه في شروط الهدنة وعقدها ليستنصره على قريش وحلفائها بني بكر، فوجدوه ﷺ في مسجده الشريف، فأخبروه بقصة غدر قريش وبني بكر، وتبييتهم على (الوتير)، وتتبعهم لهم في الحرم حتى أدخلوهم دار بديل بن ورقاء بعد مقتلة منهم، فقام ﷺ يجر رداءه وهو يقول: «لا نصرت إن لم أنصركم مما أنصر منه نفسي».

وفي حديث عائشة رضي الله عنها عند أبي يعلى بسند جيد، قالت: لقد رأيت رسول الله ﷺ غضب مما كان من شأن بني

كعب غضبًا لم أره غضبه منذ زمان، وقال: «لا نصرني الله إن لم أنصر بني كعب».

وروى الواقدي أنه ﷺ قال لعائشة رضي الله عنها صبيحة وقعة خزاعة: «لقد حدث يا عائشة في خزاعة أمر» فقالت عائشة رضي الله عنها: أترى قريشًا تجترئ على نقض العهد الذي بينك وبينهم وقد أفناهم السيف؟ فقال ﷺ: «ينقضون العهد لأمر أراده الله» قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله، خير، قال ﷺ: «خير».

نهوض رسول الله لمناصرة خزاعة وفاء بعهدها:

وفي حديث أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها عند الطبراني في صغيره أنها قالت: بات عندي رسول الله ﷺ ليلة، فقام ليتوضأ إلى الصلاة فسمعته يقول في متوضئة: «لبيك، لبيك، لبيك» ثلاثًا «نصرت، نصرت، نصرت» ثلاثًا، فلما خرج قلت: سمعتك تقول في متوضئك: «لبيك، لبيك، لبيك» ثلاثًا: «نصرت، نصرت، نصرت» ثلاثًا، كأنك تكلم إنسانًا، فهل كان معك أحد؟ فقال ﷺ: «هذا راجز بني كعب يستصرخني، ويزعم أن قريشًا أعانت عليهم بني بكر».

وهذا من قبيل الإِخبار بالغيب، فهو علم عظيم من أعلام النبوة، ومعجزة كونية شرف الله تعالى بها نبيه، وأكرمه في رسالته إنافة بقدره العظيم، وهذا مما لا يكون إلا بوحي من الله تعالى.

حرص رسول الله ﷺ وتحرزه لإخفاء قيامه في نصرة خزاعة:

ثم أمر ﷺ عائشة رضي الله عنها أن تجهزه للاستعداد لغزو قريش وفاء بعهده مع حلفائه الخزاعيين، وأمرها ﷺ أن تخفي الأمر فلا تعلم به أحدًا، وعند ابن إسحاق والواقدي: أنه ﷺ قال لها: «جهزينا وأخفي أمرك».

ثم قال ﷺ: «اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بغتة، ولا يسمعون بنا إلا فلتة».

وأمر ﷺ أن تقام الأنقاب، وأماكن التفتيش، وجعل عليها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأمر أصحاب الأنقاب أن لا يَدَعُوا أحدًا يمر بهم ينكرونه إلا ردوه.

وكانت الأنقاب مفتوحة الأعلى، من سلك إلى مكة فإنه يتحفظ منه ويسأل عنه خشية أن يكون جاسوسًا لقريش، أو يكون ممن يخاف منه أن يتحدث بما رأى ولو لم يكن ذلك مقصودًا له.

وهذا التدبير من أحكم ما تقوم عليه سياسة مباغتة العدو الغادر، وهو من التدبير المحكم الذي ينبغي أن تأخذ به قيادات الأمة الإسلامية في تيقظها لحركات عدوها، والتحفظ الشديد في أخبارها لئلا تتسرب إلى أعدائها، وفيه تأكيد لأسلوب المفاجأة الذي أراده النبي ﷺ في تأهبه واستعداده وتجهيزه

لأخـذ قريـش بغتة، كما قـال ﷺ في دعائـه: «اللهم خذ على أبصارهـم وأسـماعهم فلا يرونـا إلا بغتة، ولا يسـمعون بنا إلا فلتة».

وكان أخصـاء أصحابه وأهل بيتـه الذين يعلمون بعضهم ما يقتضيه الموقف من العلم بشـيء من أسراره وطوارئ الحوادث حراصًا أشـد الحـرص على حفـظ سـره ﷺ، لا يتحدثون بما يعلمون إلى أحد ولو كانوا آباءهم، بل لو كانوا مع هذه القرابة القريبة أخص الناس برسـول الله ﷺ كما يدل على ذلك موقف عائشـة رضي الله عنهـا من أبيها أبي بكـر الصديق، وهي تعلم أنه رضي الله عنه أخص الأصفياء برسـول الله ﷺ وأحفظ الناس لسره.

كتمان عائشة رضي الله عنها أمر مسيره ﷺ إلى مكة على أبيها:

قالت السـيدة أم المؤمنين ميمونـة بنت الحارث زوج النبي ﷺ فـي حديثها الطويل عنـد الطبراني: فدخـل أبو بكر على عائشة وهي تتحرك في تجهيز رسول الله ﷺ، فقال: يا بنية، ما هـذا الجهاز، فقالت: والله ما أدري، فقال أبو بكر: والله ما هذا زمان غزو بني الأصفر، فقالت عائشة: والله لا علم لي.

وفي مرسل أبي سلمة عند ابن أبي شيبة أنها أعلمته، فقال: والله مـا انقضت الهدنة بيننا، فذكـر ذلك أبو بكر للنبي ﷺ،

فذكر له النبي ﷺ أن قريشًا أول من غدر، ونقض عهد الهدنة وحل عقدتها.

والتوفيق بين هذين الخبرين أن عائشة رضي الله عنها كتمت سر رسول الله ﷺ على أبيها أول الأمر، وهي تعلم منزلته عند رسول الله ﷺ، وأنه أكتم الناس لسره، ثم حدثت رسول الله ﷺ بما كان منها مع أبيها، فرأت من النبي ﷺ أنه لا ينكر عليها إعلام أبيها بالخبر.

أبو بكر يذهب إلى النبي ﷺ ليؤكد خبر نقض قريش للعهد:

ثم ذهب أبو بكر رضي الله عنه إلى النبي ﷺ بعد إعلامها له، وأراد معرفة غور هذا الحدث الذي يتجهز له رسول الله ﷺ، ويكتمه ويوصي بكتمانه، وتحدث معه في شأن قريش ونقضها عهد الهدنة، فأخبره النبي ﷺ بأن قريشًا كانت أول من غدر بالهدنة وعهدها فهو يتجهز لغزوها، وهذا معنى ما ذهب إليه الزرقاني في توفيقه بين الحديثين إذ قال: ويحتمل الجمع بأن أباها دخل عليها مرتين، الأولى قالت له: لا علم لي، حتى أخبرته ﷺ أي بما كان منها لأبيها من الإنكار وقولها له: لا علم لي - ولكن النبي ﷺ أذن لها في إخبار أبيها، لكونه عيبة سر رسول الله ﷺ، فدخل عليها أبوها ثانيًا فأخبرته، وكأنه لم يبلغه نقض قريش العهد.

قالت السيدة ميمونة بنت الحارث زوج النبي ﷺ في حديثها: فأقمنا ثلاثًا، ثم صلى الصبح ﷺ بالناس، فسمعت الراجز ينشده:

يا رب إني ناشد محمدًا
حلف أبينا وأبيه الأتلدا

إلى آخر الأبيات المتقدمة

حرص رسول الله ﷺ على معرفة من الذي تولى كبر نقض العهد:

وفي حديث ابن عمر عند ابن عائد أن ركب خزاعة لما قدموا على رسول الله ﷺ وأخبروه بقصتهم قال لهم صلوات الله وسلامه عليه: «فمن تهمتكم وظنتكم؟» قالوا: بني بكر، قال ﷺ: «أكلها»؟ قالوا: لا، ولكن بن نفاثة ورأسهم نوفل، قال ﷺ: «هذا بطن من بني بكر، وأنا باعث إلى أهل مكة فسائلهم عن هذا الأمر، ومخيرهم في خصال ثلاث» فبعث إليهم يخيرهم بين أن يدوا قتلى خزاعة، أو يبرءوا من حلف بني نفاثة، أو ينبذ إليهم على سواء، فجاءهم مبعوث رسول الله ﷺ بما بعثه إليهم من التخيير بين الخصال الثلاث، فاجتمعت رءوس قريش للتشاور فيما عرضه عليهم رسول الله ﷺ، فعجل قرظة بن عمرو من بين القوم فقال: لا ندي ولا نبرأ، ولكننا ننبذ إليه على سواء،

ورجع المبعوث بما سمع منهم فأخبر به رسول الله ﷺ .

ندم قريش وارتياعها وإرسالها أبي سفيان ليجدد العهد ويزيد في مدة الهدنة:

بيد أن قريشًا ندموا على ما ردوا به على رسول الله ﷺ ، وبعثوا أبا سفيان بن حرب إلى رسول الله ﷺ ليجدد العهد، ويزيد المدة.

وذكر الواقدي أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «كأنكم بأبي سفيان قد جاء يقول: جدد العهد وزد في المدة، وهو راجع بسخطة».

واستولى على قريش الخوف أن يغزوهم رسول الله ﷺ ، فأخذهم المقيم المقعد من الفزع والرعب، والذهول والدهش والحيرة، فمشى الحارث بن هشام وعبد الله بن أبي ربيعة إلى أبي سفيان بن حرب، فقالا له: لئن لم يصلح هذا الأمر لايروعكم إلا محمدًا في أصحابه فقال لهما أبو سفيان: هذا أمر لم أشهده، ولم أغب عنه، لا يحمل إلا علي، والله ما شوورت فيه ولا هويته حين بلغني، ليغزونا محمد إن صدقني ظني وهو صادقي، وما بُدٌّ في أن آتي محمدًا فأكلمه، فقالت جموع قريش: أصبت، فخرج أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة، ودخل على ابنته أم حبيبة زوج النبي ﷺ ووقعت بينهما القصة التي سبق ذكرها.

وفـي هذه الرواية زيـادة مفيدة، إذ قالـت أم حبيبة في أدب النبوة الأسـيفة على ضلال أبيها الذي كانت ترجو له في عقله أن لا يفوته ما في الإسـلام من خير وهدى: فأنت يا أبت سـيد قريش وكبيرها كيف يسـقط عنك الدخول في الإسلام؟ وأنت تعبد حجرًا لا يسمع ولا يبصر.

مساعي أبي سفيان تبوء بالخذلان وفضيحة المكر الدهي:

فقام من عندها ثم أتى رسول الله ﷺ في المسجد، يسأله أن يجـدد العهد ويزيد في المـدة فأبى عليه، فكلمه فلم يرد عليه رسـول الله ﷺ شيئا وعند الواقدي فقال أبو سفيان: يا محمد، إني كنت غائبًا في صلح الحديبية فجدد العهد وزدنا في المدة، فقال ﷺ: «فلذلك جئت» قال أبو سفيان في بله الدهاة: نعم، فقال له رسـول الله ﷺ ليوقظه من سكرة دهائه الكذوب: «هل كان من حدث»؟ فقال الداهية المسـتطار عقله المسلوب عنه دهاؤه: معاذ الله، نحن على عهدنا وصلحنا، لا نغير ولا نبدل، فقال ﷺ: «فنحن على ذلك» فأعاد داهية قريش القول متغابيًا للذي قاله لرسـول الله ﷺ في تجديد العهد وزيادة المدة، فلم يرد عليه صلوات الله عليه شيئًا.

فذهب أبو سـفيان وهو يحمل عكازة الخيبـة يتوكأ عليها لتعيـن رجليـه على حملـه إلى أبي بكـر، فكلمـه أن يكلم له

رسول الله ﷺ، فقال له أبو بكر: ما أنا بفاعل.

وفي رواية الواقدي أنه قال لأبي بكر: تكلم محمدًا، وتجير أنت بين الناس، فقال الوديع الهادئ في رسوخ اليقين وهدوء الإيمان: جواري في جوار رسول الله ﷺ.

وطأ عمر بن الخطاب على يافوخ أبي سفيان:

فأتى أبو سفيان عمر بن الخطاب فكلمه أن يشفع له عند رسول الله ﷺ، فقال له القوي الأمين عمر رضي الله عنه: أنا أشفع لكم؟ فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به، ما كان من حلفنا جديدًا فأخلقه الله، وما كان منه متينًا فقطعه الله، وما كان منه مقطوعًا فلا وصله الله، فقال أبو سفيان لعمر: جوزيت من ذي رحم شرًا.

وفي بعض الروايات أن أبا سفيان أتى عثمان بن عفان رضي الله عنه بعد يأسه من عمر وسماعه شدة كلامه، فقال لعثمان: أجر بين الناس، فقال عثمان: جواري في جوار رسول الله ﷺ، ثم أتى عليًا فدخل عليه، فقال: يا علي إنك أَمَسُّ القوم رحمًا بي، وإني جئت في حاجة فلا أرجع كما جئت خائبًا، فاشفع لي، فقال علي رضي الله عنه: ويحك يا أبا سفيان!! والله لقد عزم ﷺ على أمر ما نستطيع أن نلكمه فيه.

ولما سمع أبو سفيان من علي رضي الله عنه ما قطع رجاءه عنده في الوصول إلى شيء يحفظ به ماء وجهه ويرجع به إلى

قريـش، متقيًا غضبهـا عليه، تهانـف بين يـدي فاطمة عليها السـلام[٢٦]، وتهافت تفكيره فلم يعد يدري بمن يستشفع إلى رسول الله ﷺ لينقذه من ورطته، فردته في أدب التربية النبوية.

تصاغر أبي سفيان أمام مدلهمات الخطوب:

أف، ثـم أف للعنجهيـة إذا ذلـت بعد عـز، وتصاغرت بعد استكبار، وتهاوت بعد بأو الغرور[٢٧].

سـيد البطحاء وقائد كنانة وداهية قريش وقائد جحافلها المهزومـة لمهاجمة النبي ﷺ وأصحابـه في حروب ظالمة مظلمـة، أبو سـفيان صخر بن حـرب ينزل من عليـاء بأوه وغروره الوثني إلى ملعب حسـن بن علـي يتهاوى بين يديه وهـو يدب في ملعبه بين أبويه بطل الإسـلام وسـيدة نسـاء العالمين، يناغي لعبه وتسـلياته، بعيدًا بخياله ومضاحاكته عـن نزيز تفكيـر[٢٨] طاغية قريـش الذي جاء إلـى المدينة مملوءًا بالغطرسـة والاستكبار، ليعود إلى قريش بمضاحك غدرتهـا بخزاعة حلفاء رسـول الله ﷺ ويخـدع لها محمدًا ﷺ وأصحابـه، وينتزع منهم تجديدًا لعهد الحديبية وزيادة فـي مدة هدنتها، حاملًا معه أكاذيـب يتوهم أنها تجوز على

---

(٢٦) المهانفة الضحك فوق التبسم وهو نعت في ضحك النساء خاصة. (المجلة)
(٢٧) البأو: التكبر. (المجلة)
(٢٨) نزيز تفكير: المراد التفكير العفن البعيد عن المروءة. (المجلة)

محمد ﷺ وعلى أصحابه، وطاف في رفقة الشيطان في أزقة المدينة المنورة وبيوتها، يسأل ويرجو ويتملق فلا يجد سميعًا لما يقول ولا مجيبًا لما يريد.

صورة من الهوان يبدو فيها أبو سفيان بين ذل الخذلان وتفاهة الدهاء الجاهلي:

لقد بدأ أول ما بدأ حين وصوله إلى المدينة المنورة بنزوله عند ابنته أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان زوج رسول الله ﷺ، فأسرعت إذ رأته داخلًا عليها بيتها إلى فراش رسول الله ﷺ فطوته عنه خشية أن يجلس عليه، وهو الفراش الطاهر المطهر، فعجب أبوها أبو سفيان من فعلها، ودارت به الظنون والأوهام، وأسكره الغرور بخمرة العنجهية والاستكبار وقال لها ما قال، وهو يعلم أنها زوجة الهادي سيد الخلق محمد رسول الله ﷺ، التي ملأ الإيمان قلبها ومشاعرها، ولكنه تغابى وتجاهل وسأل وأجيب بما أغصه بريقه: هذا فراش رسول الله ﷺ، وأنت مشرك لا تصلح للجلوس على هذا الفراش الطاهر المطهر.

وخرج أبو سفيان من عند ابنته أم حبيبة رضي الله عنها يثقله الخزي ويقلقه الخذلان إلى لقاء رسول الله ﷺ وفي جعبته حصيلة من الخداع والكذب، فكلم رسول الله ﷺ فلم يرد عليه النبي ﷺ شيئًا، ثم قام يجر رجليه جرًا، فذهب

إلـى أبي بكر وعمر وعثمان وعلي - وهم أكبر أهل شـورى رسول الله ﷺ - فلقي منهم ما لقي من الرد الذي أظلمت به الدنيا عليه، فلم يدر أيشرِّق أم يغرب، حتى ألقته الحيرة إلى أشـراف الأنصار، فأتى سـعد بن عبادة سـيد الخزرج، فقال له: يا أبا ثابت، إنك سـيد هذه البحيـرة، فأجر بين الناس، وزد في المدة، فقال له سعد رضي الله عنه: جواري في جوار رسول الله ﷺ، ما يجير أحد عليه ﷺ.

ثم عاد يجره الشـيطان من خياشـيم اليأس والطغيان إلى أشـراف قريش من المسلمين والأنصار، يتهانف ويتهافت، ويسـتجير ويسـتصرخ، ويتملق، فكلهم يقول له: جواري في جوار رسول الله ﷺ، ما يجير أحد عليه.

قـال الواقدي: فلمـا أيس منهم دخل علـى فاطمة عليها السـلام، فقال لها: هـل لك أن تجيري بيـن الناس، فقالت فاطمة عليها السـلام: إنما أنا امرأة، وأبتْ عليه، فقال لها: مري ابنك، فقالت: ما بلغ أن يجير.

لعب علي بعقل داهية البطحاء وزعيم قريش:

ثم اتجه أبو سفيان بعد أن أفرغ كل ما في نفسه من استكبار وغرور إلى علي رضي الله عنه، فقال مسـتغيثا به، وكأنما يرمي بآخر سهم في كنانته ليستسلم إلى الموت على أي صورة يأخذه عليها، فقال لعلي: يا أبا الحسـن، إني الأمور وقد اشتدت علي

فانصحني، قال علي رضي الله عنه: والله ما أعلم شيئًا يغني عنك، ولكنك سيد بني كنانة!! - أف لهذه السيادة المتهاوية - فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك، قال أبو سفيان في لهفة الغريق المتشبث بقشة فوق أمواج المحيط: أو ترى ذلك مغنيًا عني شيئًا؟ قال علي رضي الله عنه: لا، والله ما أظنه، ولكن لا أجد لك غير ذلك، فقام أبو سفيان في المسجد مستجمعًا ماضيه ليبله بدمع حاضره، فقال: أيها الناس إني قد أجرت بين الناس ولا والله، ما أظن أن يخفرني أحد - رأفة للدهاء إذا عاد خواء؟! - يقول ذلك أبو سفيان وكأنما يكلم نفسه، لأن الناس كانوا في شغل، لم يسمعوه إذ قال ما قال، فلم يردوا عليه شيئًا.

ثم دخل على رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، إني قد أجرت بين الناس، فقال ﷺ: «أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة؟» ثم خرج أبو سفيان، وحط نفسه على بعيره فانحط عليه، ثم انصرف إلى مكة خاويًا مسلوبًا مهزومًا، وكان أبو سفيان يزن فشله وخذلانه ويقدره ويقدر نتائجه الخطيرة عند قومه عليه وعلى سمعته ومكانته بينهم.

قال الواقدي: وطالت غيبة أبي سفيان، واتهمته قريش أشد التهمة، وقالوا: قد صبأ واتبع محمدًا سرًا وكتم إسلامه، فلما دخل على هند امرأته ليلًا، قالت: لقد غبت حتى اتهمك قومك،

فإن كنت مع طول الإقامة جئتهم بنجح فأنت الرجل، ثم جلس منها مجلس الرجل من امرأته، فقالت: ماذا صنعت؟ فأخبرها الخبر، وقال: لم أجد إلا ما قال لي علي، فضربت برجلها صدره، وقالت: قبحك الله من رسول قوم فما جئت بخير، واخزياه؟! حتى هند؟! وحتى في مجلسي منها هذا المجلس؟ أنال منها ما نالني؟ واخزياه مرة أخرى، هذه هند وقد لقيتُ منها ما لقيت، فماذا عن قومي الذين أرسلوني لآتيهم بكل ما أوتيت من دهاء بما يرفع عنهم الفزع والرعب؟ من غزو محمد فلم آتهم بشيء إلا شيء يزيدهم رجسًا على رجسهم، وفزعًا إلى فزعهم، ورعبًا إلى رعبهم، وهلعًا إلى هلعهم، إنهم اتهموني في وثنيتي وشركي واتهموني بأني أسلمت مع محمد، وآمنت بدعوته، وتركت اللات والعزى وإساف ونائلة، فكيف أرضهم وأكفر عن جريمتي معهم؟ فأرينهم أني على عهدهم بي في وثنيتي وشركي، أما هند فعندي وسائل إرضائها وإضحاكها، فحسبُها مني مجلس كمجلسي معها بالأمس الذي أهانت فيه عنجهيتي واستكباري في أرض الغرور والتكذب.

تكفير أبي سفيان عن بلاهة دهائه بكفر زاده رجسًا:

وانتظر حتى أصبح ليراه قومه في كفره ووثنيته، وذهب إلى آلهته، فحلق عند إساف ونائلة ومسح بالدم رءوسهما، وقال لهما: لا أفارق عبادتكما حتى أموت إبراء لقريش

مما اتهموه به، وقبلت قريش في بلاهة وجهالة اعتذاره، ثم كلموه في وفادته إلى محمد ﷺ، فقالوا له: ما وراءك؟ هل جئت بكتاب من محمد أو زيادة في مدة ما نأمن به أن يغزونا، فقال الخزيان أبو سفيان وهو يداري سوأة الخجل عن قومه إن كان الدهاة البلهاء يخجلون: كلمته فوالله ما رد علي بشيء، ثم جئت أبا بكر فلم أجد فيه خيرًا، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أعدى العدو، وكلمت علية أصحاب محمد فما قدرت على شيء منهم، إلا أنهم يرمونني بكلمة واحدة، وما رأيت قومًا يومًا أطوع لملك عليهم منهم له، إلا أن عليًا لما ضاقت بي الأمور قال لي: أنت سيد بني كنانة فأجر بين الناس، فناديت بالجوار، فقال له قومه: هل أجاز ذلك محمد؟ قال أبو سفيان: لا، فقال له قومه: لقد رضيت بغير رضا، وجئتنا بما لا يغني عنا ولا عنك شيئًا، ولعمر الله ما جوارك بجائز، وإن إخفارك عليهم لهين، والله إن زاد علي على أن لعب بك تلعبًا، فقال أبو سفيان، والله ما وجدت غير ذلك.

وفي مرسل عكرمة عند ابن أبي شيبة أنهم قالوا له: ما جئتنا بحرب فنحذر، ولا بصلح فنأمن، وبهذا ينتهي فصل من مضحكات داهية قريش وسيد بني كنانة وسيد البطحاء أبي سفيان بن حرب.

مشاورة النبي ﷺ أبا بكر وعمر في غزوه قريش:

وفي حديث أبي مالك الأشجعي عند ابن أبي شيبة أن النبي ﷺ خرج من بعض حجره، فجلس عند بابها - وكان إذا جلس وحده لم يأته أحد حتى يدعوه - فقال ﷺ: «ادع لي أبا بكر»، فجاء فجلس بين يديه فناجاه طويلًا، ثم أمره فجلس عن يمينه، ثم قال ﷺ: «ادع لي عمر» فجلس فناجاه طويلًا، فرفع عمر صوته، فقال: يا رسول الله، هم رأس الكفر، هم الذين زعموا أنك ساحر، وأنك كاهن، وأنك كذاب، وأنك مفتر، ولم يدع شيئاً مما كانوا يقولونه إلا ذكره، فأمره فجلس عن شماله، ثم دعا الناس فقال لهم: «ألا أحدثكم بمثل صاحبيكم هذين» قالوا: نعم يا رسول الله، فأقبل بوجهه الكريم على أبي بكر فقال: «إن إبراهيم كان ألين في الله تعالى من الدهن للميل» ثم أقبل على عمر فقال: «إن نوحًا كان أشد في الله تعالى من الحجر، وإن الأمر أمر عمر، فتجهزوا وتعاونوا، فتبع الناس أبا بكر»، فقالوا: إنا كرهنا أن نسأل عمر عما ناجاك به رسول الله ﷺ، قال أبو بكر قال لي رسول الله ﷺ: «كيف تأمرني في غزوة مكة» قلت: يا رسول الله، هم قومك، حتى رأيت أنه سيطيعني، ثم دعا عمر فقال عمر: هم رأس الكفر، حتى ذكر له كل سوء كانوا يقولونه، وايم الله لا تذل العرب حتى يذل أهل مكة، وقد أمركم بالجهاز لتغزو مكة.

الفهرس